الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
République Algérienne Démocratique et Populaire
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
Ministère de l'Enseignement Supérieur et de la Recherche Scientifique

المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف لميلة

معهد الآداب واللغات — قسم اللغة والأدب العربي

المرجع: .....

فنّ الهجاء في ديوان الطّرمّاح بن حكيم
ـ موضوعاته وأساليبه ـ

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في اللغة والأدب العربي

تخصص: أدب عربي قديم

إعداد الطالبتين:
**** مريم مروج***
**** نجلاء بلجاهل***

إشراف الأستاذ:
عمّار قرايري

بسم الله الرحمن الرحيم

ربّنا إنّا نسألك علما نافعا ورزقا طيّبا وعملا متقبّلا، وإنّا نسألك هدوء النّفس وطمأنينة القلب وانشراح الصّدر.

ربّنا لا تدعنا نصاب بالغرور إذا نجحنا ولا باليأس إذا أخفقنا وذكّرنا أنّ الفشل هو التّجربة التي تسبق النّجاح، وعلّمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علّمتنا وزدنا علما.

ربّنا ثبّتنا على دينك الحق وانصرنا واذكُرنا ولا تنسانا، وأخرجنا من ظلمات الوهم وأكرمنا بنور الفهم، وافتح علينا بمعرفة العلم وحسّن أخلاقنا بالحلم وسهّل لنا أبواب فضلك وأنشر علينا من خزائن رحمتك يا أرحم الرّاحمين.

شكر وتقدير

الحمد لله الذي منّ علينا بنعمة العلم وهدانا إلى سبل الرّشاد وما كنّا لنتمّ هذا العمل لولا فضله علينا وتوفيقه لنا، فنشكره شكرا عظيما يليق بجلال سلطانه وبعظيم قدره.

نتوجّه بأسمى عبارات الشّكر والتّقدير إلى الأستاذ الفاضل "عمّار قرايري" إذ كان نعم الموجّه والمشرف، فلم يبخل علينا بتوجيهاته القيّمة ونصائحه طوال فترة إعداد البحث، فجزاه الله كل خير.

كما نتوجّه بالشّكر الخالص إلى كافّة أساتذة قسم اللّغة والأدب العربي لأنّهم أناروا لنا دروب العلم والمعرفة وغرسوا فينا حب الإطّلاع، ونخصّ بالذّكر الأساتذة الأفاضل المناقشين لما سيقدّمونه من نصائح ثمينة وملاحظات قيّمة.

ولا يفوتنا أن نشكر كلّ من كان له الفضل في وصولنا إلى هذه المرحلة، وإلى كلّ من ساعدنا في إنجاز المذكرة من قريب أو من بعيد.

إهداء

قال الله عزّ وجلّ: "الحَمْدُ لله الذِي هَدانَا لهذا ومَا كُنَّا لِنَهْتَدِي لَوْلا أَنْ هَدَانا الله"

الأعراف الآية 43.

أهدي ثمرة جهدي إلى نبع الحنان الذي لا ينضب أمي الغالية.

إلى ينبوع العطاء الذي زرع في نفسي الطّموح والمثابرة أبي الحبيب.

إلى من يحملون في عيونهم ذكريات طفولتي وشبابي، إخوتي الأعزّاء: سمير، إيمان، بشرى، عبد الرّؤوف، محمّد.

إلى من ضاقت السّطور من ذكرهم فوسعهم قلبي، إلى صديقاتي ورفيقات دربي.

إلى كلّ من علّمني حرفا في هذه الدنيا الفانية من قريب أو من بعيد.

مريم مروج

إهداء

إلى أغلى من في الوجود نبع الحنان والعطاء، إلى تلك العظيمة التي لطالما كانت ولازالت دافعا لنجاحي، يا ربّي أسعدها سعادة الدّنيا بخيرها والجنّة بفردوسها.

إلى من تحمّل العناء لأجل راحتي وظلّ لي وطنا لم تسعه مساحة الأرض، إلى أعظم رجل أضاء حياتي، اللّهم حرّم عليه حرّ الآخرة.

إلى أجمل وجود في الكون إخوتي: مروة، صفاء، أحمد، وإلى عائلتي.

إلى صديقاتي: رفيدة، إلهام، نريمان، فريال، يسرى، مريم، بشرى.

إلى كل من رافقني طيلة المشوار الدراسي، وإلى كل من ساندني في إتمام البحث.

إليكم جميعا أهدي ثمرة هذا الجهد المتواضع.

نجلاء بلجاهل

مقدّمـــــــة

يعتبر الهجاء من الفنون الشعريّة ومن الأقسام الأساسيّة للشّعر، وجد منذ العصر الجاهلي لصيقا بغرض الفخر ومناقضا للمدح، حيث يلجأ الشّاعر إليه بغرض إفراغ أحاسيسه ومشاعره الغاضبة اتجاه شخص معيّن أو سلوك أو مكان ما أو دين، ويعدّ الشاعر الأموي الطّرمّاح بن حكيم من بين الشعراء الذين أبدعوا في نظم أشعارهم الهجائيّة، فقد عُرف ولمع اسمه في مجال الأدب بفضل تنوع مواضيع هجائه، وكذلك بفعل براعته في تشكيل أسلوبه.

وقد عُرف العصر الأموي على خلاف باقي العصور بكثرة شعرائه الهجّائين وبتنوع نصوصهم الهجائيّة من جانب موضوعاتها وأساليبها، فاشتهر شعراء كثر تنافسوا وتقاتلوا فيما بينهم بألسنتهم، ومن أولئك "الطّرمّاح بن حكيم الطّائي" حيث كان من بين أبرز شعراء هذا العهد، نقل بواسطة قصائد هجائه صورا متنوعة وأحداثا متعدّدة وقعت في هذه الفترة من التاريخ العربي القديم، فكان شعره حاملا لدلالات مختلفة، ولعلّ أبرز ما عبّر عنه هو ذلك الصراع السياسي والاجتماعي الناتج عن العصبية القبليّة، كما كان الغرض عنده يتناول موضوعات هجائيّة تداولها شعراء آخرون وقام بمعالجتها بأسلوب مميّز جعله يختلف عنهم.

لقد تم اختيار موضوع "فنّ الهجاء في ديوان الطّرمّاح موضوعاته وأساليبه" بدافع ذاتي أوّلا؛ والذي رجع إلى رغبة خاصّة في الاطّلاع عن قرب على شعر هجائه والسّعي إلى معرفة أسلوبه، وما السّبب الذي جعله يتميّز ويشتهر بهذا الغرض عن باقي الأغراض الأخرى، ثمّ بعد ذلك أتت الدوافع الموضوعية والتي رجعت إلى قلّة الدراسات التي اهتمت بالشّاعر وسعت إلى تحليل شعره وعلى الأخص فنّه الهجائي، فالشاعر من فحول الشّعراء الأمويّين أبدع وأجاد في هذا الفنّ، لذا سيعدّ من الجحود عدم التطرّق إلى شعره وإعطائه حقّه من الدّراسة.

وهناك دراسات سبقت هذا البحث تناولت حياة الشّاعر وعالجت شعره من زوايا متعدّدة غير أنها قليلة منها: "صورة العصبيّة القبليّة في شعر الطّرمّاح بن حكيم الطّائي" لعلي محمد الحبوبي، و"الطّرمّاح بن حكيم الطّائي حياته وشعره" لطارق إبراهيم عبد الرّحمان، و"شعر الطّرمّاح بن حكيم الطّائي دراسة موضوعيّة وفنية" لفتحي محمد طالب المسعيدين.

سعى البحث إلى الوصول للإجابة عن إشكالية أساسيّة تنقسم إلى جزأين وهما: ماهي الموضوعات الهجائيّة التي ذكرها شاعر طيّء "الطّرمّاح بن حكيم" في ديوانه ؟ وما الأساليب التي اتّبعها في ذلك؟ ليتفرّع عن هذه الإشكالية الرئيسيّة جملة من الأسئلة الفرعيّة منها: ما مدى تأثير أوضاع العصر الأموي في شعر الهجاء؟ وما هي العوامل التي ساعدت على تطوّره؟ إلى أيّ حدّ نجح الشّاعر في التّأثير على المتلقّين بشعر هجائه؟ وهل تمكّن بالأسلوب الذي وظّفه من أن يُخلّف نصوص إبداعية خالدة ذات بصمة متميّزة؟

وللإجابة عن كلّ هذه التّساؤلات تم إتباع خطّة مقسّمة إلى مدخل، فصل نظري وآخر تطبيقي.

أولا **المدخل** جاء تحت عنوان: "**ترجمة حياة الشّاعر**" تمّ فيه التطرّق إلى حياة الشّاعر من حيث نسبه، نشأته، مذهبه، وفاته، وإلى خصائص شعره ومميّزاته.

وأمّا **الفصل الأول** فقد ورد بعنوان: "**غرض الهجاء وأثر البيئة الأمويّة فيه**" جاء فيه حديث عن الهجاء من حيث تعريفه وبيان أنواعه وكيفية تطوّره انطلاقا من العصر الجاهلي وصولا إلى العصر العبّاسي، وكذلك تم فيه الحديث عن أوضاع العصر الأموي وأثرها في ازدهار الهجاء.

أما **الفصل الثاني** فخُصّص للدّراسة التطبيقية لموضوعات وأساليب هجاء الطّرمّاح، حيث جاء بعنوان: "**موضوعات هجاء الطّرمّاح وأساليبه**".

لينتهي البحث **بخاتمة** وفيها أبرز النّتائج المتوصّل إليها.

لذا كان الهدف من هذه الدّراسة هو تحليل نصوص هجائيّة قديمة لأحد أهم شعراء العصر الأموي من أجل الكشف عن موضوعاتها ومعرفة أسباب ودوافع قولها والوقوف على مواطن الإبداع فيها.

وقد قامت عناصر البحث على المنهج الفني باعتباره الأنسب لهذه الدراسة؛ لما له من قدرة على تحليل النصوص من الجوانب الفنيّة والإبداعيّة، مع الاستعانة ببعض المناهج الأخرى كلّما دعت الضرورة إلى ذلك، كالمنهج التاريخي خلال التطرّق إلى حياة الشّاعر وأيضا عند الكلام عن تطور الهجاء في الشعر العربي القديم، دون إغفال لآليتي الوصف والتحليل واللّتان كانتا مرتكزا قام عليهما موضوع البحث.

ولإنجاز هذا العمل كان لابد من الرّجوع إلى مصادر ومراجع أهمّها: ديوان الطّرمّاح بن حكيم بتحقيق عزّة حسن، بالإضافة إلى عدد من أمّهات الكتب التراثيّة منها: معجم لسان العرب لابن منظور، وطبقات النحويّين واللغويّين للزّبيدي، ومن المراجع الحديثة كتاب التطور والتّجديد في الشعر الأموي لشوقي ضيف، وكتاب التاريخ الإسلامي ـ العصر الأموي ـ لصالح طهبوب.

وإن كانت هناك صعوبة لابدّ من الإشارة إليها فهي انتشار وباء كوفيد19 والذي منعنا من التواصل بشكل مباشر، فكان عائقا في سبيل إتمام البحث، وتبقى الصعوبات مجرّد عوائق عادية تعدّ طبيعية في كل بحث.

ولا ننسى أن نتقدّم بالشّكر الجزيل للأستاذ المشرف "عمار قرايري" الذي أعاننا على إنجاز البحث بما أسداه لنا من توجيهات وإرشادات قيمة.

والشكر موصول لأعضاء لجنة المناقشة، لقبولهم مناقشة مذكرتنا، وتجشمهم تعب القراءة وإسداء الملاحظات والتوجيهات، وتقويم البحث.

كما لا يفوتنا أن نشكر كل من قدم لنا يد العون لإنجاز هذا العمل، بدءا من مركزنا الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف عموما، وإلى معهد الآداب واللغات خصوصا، ومكتبته وأساتذته وطلبته.

وأخيرا فإنّنا نتمنّى لبحثنا أن يكون قد أضاف ولو نزرا قليلا لمكتبة البحث الأدبي، فإن وفّقنا فبفضل الله وعونه، وإن قصّرنا فمن أنفسنا، وبالله التوفيق والسّداد.

مدخل:

ترجمة حياة الشّاعر

1 نسبه

2 نشأته وحياته

3 مذهبه

4 وفاته

5 شعره

ذهب كثير من المؤرّخين والدّارسين إلى أنّ أدب العصر الأموي في أصله يعدّ امتدادا لما كان عليه في العصر الجاهلي؛ وهو ما يتضح في أغلب أدب كتّابه وخطبائه، ويتجلّى التشابه والتطابق بين أدب العصرين خصوصا في مجال الشّعر، حيث إنّ الشّعراء كانوا متأثّرين بالطبيعة الأمويّة السياسية المتوترة وما فرضته من عودة لمظاهر الحياة الجاهليّة من عصبيّة قبليّة واستمرار الصّراع بين أطراف متنوّعة. إنّ بيئة الأمويين باختلاف جوانبها فرضت عودة بعض المظاهر الجاهليّة في معاني الشّعراء، فظهر عديد من الشعراء الفحول خلال الفترة الأمويّة، قد نظموا قصائد تشبه إلى حد كبير تلك التي قيلت قبل ظهور الإسلام، ويعتبر الطّرمّاح بن حكيم الطّائي من أبرزهم، حيث اشتُهر بكونه هجّاءا مكثرا، أغلب شعره تناول فيه غرض الهجاء، فيه سخرية وتهكم بالأعداء.

1 نسبه:

ورد في جمهرة أشعار العرب للقرشي في حديثه عن نسب الطّرمّاح قوله: "هو الطّرمّاح بن حكيم بن نفر بن قيس بن جحدر بن ثعلبة بن عبد رُضا بن مالك بن أمان بن عمرو بن ربيعة بن جرول بن ثُعَل."[1] ويُكنّى أبا نفر، وكان جدّه قيس بن جحدر.[2]

ينتهي نسبه إلى طيّء وبنو طيّء من العرب القحطانية، كانت منازلهم باليمن فخرجوا منها بحادثة سيل العرم فنزلوا بنجد والحجاز على القرب من بني أسد على جبلي أجَأ وسلمى من بلاد نجد فعُرفا بجبل طيّء، ثم افترقوا في أوّل الإسلام زمن الفتوح في الأقطار، ولهم بطون كثيرة في الشام والعراق[3]. لم تختلف مصادر الأدب العربيّة وأمهات

[1] أبو زيد القرشي، محمد بن أبي الخطّاب: جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، تح: علي محمد البجاوي، د ط، نهضة مصر، مصر، 1981م، ص795.

[2] ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله: الشعر والشعراء، تح: أحمد محمد شاكر، ط2، ج2، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1967م، ص585.

[3] خليل مردم بك: الشعراء الشاميون، د ط، دار صادر، بيروت، لبنان، 1959م، ص126.

الكتب القديمة حول نسب الطّرمّاح بن الحكيم، فكلّها ترجعه إلى قبيلة طيّء اليمنية، والتي تفرّق شملها بعد أن ظهر الدّين الإسلامي وانتشرت الفتوحات الإسلامية في مختلف البلدان العربية وغير العربية.

وعُرف عن الشاعر الطّرمّاح افتخاره الدّائم واعتزازه المتواصل بنسبه وبانتمائه إلى القبيلة العربية المشهورة طيّء، فكثر في أشعاره ذكره لها وسعى إلى جعلها في المراتب العليا وعمل على وضعها في مكانة مرموقة تليق بها، ولم يخل هذا الفخر من هجاء القبائل المعادية والوقوف في وجه كل من يحاول التعرض لنسبه، فقال في إحدى قصائده:

ونَجّــاكَ مِــن أزْدِ العـــــراقِ كتائــبٌ لِقَحْطــانَ أَهْـــل الشّــام لَمّــا اســتَهَلَّتِ[1]

والطّرمّاح ليس اسمه الحقيقي وإنما هو لقب قد أطلق عليه واشتهر به فيما بعد، والكلمة في جذورها اللغوية "من طَرْمَحَ البناء وغيره أي علّاه ورفعه والطّرمّاح المرتفع وهو أيضا الطويل والرافع رأسه زهوا، وسمي الطّرمّاح في بني فلان إذا كان عالي النسب"[2]. هذه التسمية تكشف عن سمات تميّز بها الشّاعر، حيث كان يترفّع في مشيته ليبيّن علو نسبه ومكانته بين سائر أناس عصره كما أنّه كان عزيز النفس، وقد استخدم الطّرمّاح بن حكيم هذه اللفظة في أحد أبياته الشعرية، وفيه فخر بنفسه وبنسبه وأشار إلى شهرة قبيلته، فقال:

أنَا الطِّرْمَّــاحُ، فاسْــأَل بي بَني ثُعَـــــلٍ قَـــــوْمي إذا اخْتَلطَ التَّصْديرُ بالحَقَبِ[3]

وأمّا في كتاب طبقات النحويّين واللغويّين للزّبيدي ورد فيه أن الطّرمّاح سُئل: "لِم قيل لجدّك الطّرمّاح؟ وما الطّرمّاح في كلام العرب؟ فقال: أمّا في كلامنا ـ معشر طيّء ـ

[1] الطّرمّاح، بن حكيم الطّائي: الديوان، تح: عِزّة حسن، ط2، دار الشرق العربي، بيروت، لبنان، 1994م، ص71.

[2] ينظر: ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم: لسان العرب، د ط، م2، دار صادر، بيروت، لبنان، د ت، ص530.

[3] الطّرمّاح: الديوان، ص05.

فإنّه الحيّة الطويلة."[1] تشير اللفظة إلى الحيّة التي تتميز بطول مرتفع وأيضا إلى الإنسان الطويل، وكذلك فيها معنى العلو والرّفعة بالأصل، وهي كلّها تجتمع في نفس الشّاعر.

وقيل أنّه سمّي بذلك، حين قال:

ألا أيُّها اللّيـــلُ الطّويــلُ، ألاَ أَصبِـحِي بِـصُبح، ومَـــا الإِصْبَـاح منـــك بـأَروَحِ
على أنَّ لِلعَيْنَيينِ فِي الصُّبـــحِ رَاحَـــة بِطَرحِهِمَـــا طَرَفَيْهِمَـــا كُـــلَّ مَطْـــرَحِ[2]

2 نشأته وحياته:

نشأ الشّاعر بدمشق في النصف الأخير من القرن الأول، ظلّ في الشام بضع سنوات ثمّ انتقل إلى الكوفة مع من وردها من جنود بني أميّة ونزل في تيم اللاّت بن ثعلبة.[3] لم يعرف النقاد تاريخا محددا لولادته لكنهم حصروه في أواخر القرن الأول من الهجرة، والشّاعر كغيره من القائلين للشّعر أو الأدباء بصفة عامة لم يبق في موطنه الأصلي لفترة طويلة، بل غادره ورحل عنه إلى الكوفة بالعراق لطلب العلم والمعرفة، وخلال رحلته أخذ يمدح في أشعاره بعض من كانوا يجزلون عليه بالعطايا ويتغنّى بفضائلهم ومزاياهم، ويهجو آخرين ممن كانوا يمنعون عنه المكافآت والأموال كجزاء لنظمه القصائد لهم.

كبر الطّرمّاح في بيت شرف وعزّ وجاه، إذ اشتُهِرت قبيلته بمكانتها العظيمة بين سائر القبائل العربية القديمة، وعُرفت كذلك بعزها ومآثرها ومكارمها في الجاهلية والإسلام، مما أكسب الطّرمّاح وغيره من شعراء هذا النسب مكانة مرموقة بين غيرهم من الأدباء

[1] الزّبيدي، أبي بكر محمد بن الحسن: طبقات النحويين واللغويين، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط2، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1984م، ص225.

[2] الطّرمّاح: الديوان، ص06.

[3] ينظر: أحمد حسن الزيات: تاريخ الأدب العربي، د ط، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، مصر، د ت، ص171.

والشعراء.[1] فقد حظي الشاعر بحياة كريمة، ولم يعاني في طفولته كما عانى شعراء كثر من التهميش والفقر والجوع، بل عاش عزيزا بفضل قبيلته التي كانت معروفة بعراقتها وبطيب صيتها وبعظمة شأنها.

كان الطّرمّاح شاعرا متكسّبا في مدحه، "فعاش عيش الشّعراء على فضل الأغنياء يمدح من يعطيه ويهجو من يمنعه"[2]، فالشّاعر كان هجّاءا مكثرا يضع من يمنحه الهدايا والعطايا موضع الملك الموقّر أمّا من يمنع عنه فإنه يخفضه إلى أدنى المراتب بقصائد في الهجاء.

بقي الشّاعر بمنطقة السّواد المعروفة بالكوفة، فقال النّاقد المرزباني في كتابه الموشح في هذا الأمر: "أخبرني محمد بن العباس، قال: حدّثنا محمد بن يزيد النحوي، قال: حدّثنا الريّاشي، قال: حدّثنا الأصمعي، قال: سمعتُ شُعبة يقول: قُلت للطّرمّاح: أين نشأت؟ قال: بالسّواد.[3] إنّ هذه المنطقة تعدّ بمثابة موطن للشّاعر، وأيضا هو المكان الذي قد أمضى فيه فترة مهمّة من حياته.

أمّا من جانب حياته الأسريّة الخاصّة فكان له محبوبة، إذ لم يغفل عن ذِكرِها في أشعاره، فكثيرا ما تغزّل بها معبّرا عن ولعه الشديد بها، فقال في غزله لها:

كـــأنَّ فـــؤادي بَيْنَ أظْفـــارِ طـــائِرٍ إذا سَنَحَـــت ذِكْـــراكِ مـــن كلِّ مَسْنَح
وَذِكْـــراكِ مـــالمْ تسْـــعَف الـــدّارُ بيْنَنَـــا تَبَاريـــحُ مـــن عَيْـــشِ الحَيـــاةِ المُبَرّحِ[4]

[1] ينظر: فالح نصيف الحجيّة الكيلاني: موسوعة شعراء العربية، شعراء العصر الأموي، د ط، ج1، م3، د ت، ص152.

[2] أحمد حسن الزيات: تاريخ الأدب العربي، ص172.

[3] المرزباني، أبو عبد الله محمد بن عِمران بن موسى: الموشّح في مآخذ العلماء على الشعراء، تح: محمد حسين شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1995م، ص245.

[4] الطّرمّاح: الديوان، ص07.

عبر التمعّن في البيتين تتّضح مشاعر الطّرمّاح الجيّاشة اتّجاه محبوبته سلمى، فقد قدّم صورة فنيّة إبداعيّة ولوحة جماليّة خلال حديثه عن إحساسه نحوها وهو في موطن بعيد عنها، وكأنّ قلبه يحمله طائر بين أظافره كلّما خطر بباله ذكرياته معها، وفي التعبير تجسيد لشدّة وجعه وألمه على فراقها وابتعاده عنها، وهذه المعاناة سببها هو حبّه العظيم لها وشوقه وحنينه إليها.

3 مذهبه:

انتمى الطّرمّاح إلى حزب الخوارج الصفرية وتبنى آراءها وأفكارها ودافع عنها في أشعاره غير أنّه لم يبلغ حدّ التشدد، والخوارج هي الجماعة التي خرجت عن علي بعد أن قبل بالتحكيم بينه وبين معاوية في معركة الصفين الشهيرة، حيث إنّ أهلها "صاغوا لأنفسهم نظرية في الخلافة تقوم على مبدأين عامين يجمعان بين فرقهم المتباينة، المبدأ الأول أنّ الخلافة ليست وقفا على قريش كما يذهب أهل السنة، بل تجوز لكل مسلم يكون أهلا لها... المبدأ الثاني الذي قامت عليه نظرية الخوارج، هو وجوب الخروج على الإمام الجائر"[1]، لقد كان الخوارج يؤيدون علي رضي الله عنه وبايعوه للخلافة، إلا أنهم خرجوا عنه ورفضوا أن يبقوا تحت إمرته ذلك لأنهم رفضوا فكرة التحكيم التي حصلت جملة وتفصيلا.

كما أنهم ارتبطوا "بجماعات القرّاء وهي فئات من العرب شغفت بتلاوة القرآن الكريم، وقد أدّى ذلك بهم إلى الزّهد في الدّنيا والمثالية في المسلك، والتطرف بالرّأي إلى حدّ تكفير كلّ من انحرف ولو قليلا عن قيم الإسلام وأحكام القرآن"[2]. فالخوارج التزمت

[1] علي محمد الصّلّابي: الدولة الأمويّة، عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، ط2، م1، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 2008م، ص241.

[2] رياض عيسى: الحزبيّة السياسيّة منذ قيام الإسلام حتى سقوط الدّولة الأمويّة، تقديم: سهيل زكّار، د ط، دمشق، سوريا، 1992م، ص76.

بتعاليم دين الإسلام وطبّقت مبادئها جميعا إلى أن وصلت إلى درجة التشدد فيه، واتهام كل من يتجاوز حدود قواعدها بالكفر والرّدة، وهي تصوّر العصبية الدينية أكثر من تصويرها للعصبية السياسية التي شاعت في العصر الأموي.

غير أنّ الشّاعر كان "صفريا مسالما، لم يكن يكفّر المسلمين كمتطرفة الخوارج، بل كان يعاشرهم ويصادقهم، من ذلك صداقته القويّة مع الكميت... يقول الجاحظ: لم ير الناس أعجب حالا من الكميت والطّرمّاح، كان الكميت عدنانيا عصبيا، وكان الطّرمّاح خارجيا من الصفريّة"[1]. والصفريّة من فرق الخوارج انتسب إليها الشاعر، واتّصف بكونه لم يتشدد في الدين ولم يتطرف مثلما فعل أهل مذهبه، فهو وإن كان ينتمي إلى الخوارج إلا أنّه لم يصل إلى حدّ التعصب لها، وتكفير المسلمين وعِداء غير أنصار حزبه بسبب الانتماء المذهبي، وخير دليل صداقته مع الشّاعر الكميت، حيث لم يفسد أي عداء حزبي علاقتهما القويّة ولم يقطع اتصالهما مع بعض أي صراع سياسي.

4 وفاته:

اختلف دارسو الأدب في تاريخ وفاة الشّاعر؛ فهناك من قال إنّه توفي عام 102هـ/ 722م، وقيل في عام 105هـ[2]، أما المؤرخ شوقي ضيف فيؤيّد الرأي الثاني ويرجّح أنّ تاريخ وفاته كان سنة 105هـ.[3]

[1] شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي، ط7، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1976م، ص311.
[2] فالح نصيف الحجية الكيلاني: موسوعة شعراء العربية، العصر الأموي، ص160.
[3] شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي، ص314.

5 شعره:

الطّرمّاح من فحول الشّعراء العرب الذين عاشوا في فترة ما بعد صدر الإسلام أي في العصر الأموي، وهو مجيد في شعره فلا يكاد يخلو مؤلَّف قد تحدث عن الشّعر الأموي من نماذج لشعره، وقد كثرت الروايات التي تؤكّد على مكانته البارزة في نظمه للشّعر وإجادته له، فقد "شهد ذو الرّمة الشّاعر للطّرمّاح بجودة الشّعر، وأبدى حسده له، وإعجابه بشعره، وذكره أبو الفرج الأصفهاني حين قال: "أشعر بيت قيل بيت الطّرمّاح:

إذا قبضت نَفْسُ الطّرْمَّاح أَخلَقَت عرى المجدِ، واسْتَرخى عنان القصائد

وكل هذه الأقوال تشهد للطّرمّاح بإحسان الشعر وإجادته."[1]

إنّ "كلّ من يقرأ شعر الطّرمّاح يلاحظ أنه لا يجري على وتيرة لغوية واحدة، فهو حين يصدر عن عقيدته أو يمدح أو يهجو لا يغرب على سامعيه، ولكن حين يصف الصحراء يحاول بكل ما يستطيع أن يجمع أوابد الألفاظ ووحشيها"[2]، فاتّصفت لغته الشعريّة بالوضوح والبساطة في عدد من قصائده وفي أغراض معيّنة، حيث يتسنّى لغير أهل الفصاحة فهمها، غير أنّه قد يلجأ إلى غريب الألفاظ ووحشيها في قصائد أخرى فلا يتمكن من فهم معانيها إلّا علماء اللغة وأصحاب الفصاحة، فشعره يجمع بين ثنائيتين متضادتين وهما البساطة والغرابة.

وفي هذا الموضوع قال العجاج: كان الطّرمّاح والكميت يسألانني عن الغريب فأُخبرهما به ثم أراه في شعرهما وقد وضعاه في غير موضعه. فقيل له: ولم ذلك؟ فقال: لأنّهما قرويان يصفان ما لم يريا[3]. فالطّرمّاح لم يكن شاعرا مطبوعا لمّا وظّف الغريب في

---

[1] الطّرمّاح: الديوان، ص24.

[2] شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي، ص 314.

[3] أحمد حسن الزيات: تاريخ الأدب العربي، ص174.

شعره كبعض الشّعراء وبالأخص الجاهليين منهم الذين سيطر على شعرهم الغريب من الألفاظ دون أن يتكلّفوا فيها، لذا فإنّ العجّاج والبعض من النّقاد رأوا أنّ الشّاعر كان متصنعا، يلتقط ما هو غير معروف ولا واضح في كلام العرب ويدخله في نظمه لأبيات الشّعر دون أن ينتبه لموضعه.

للطّرمّاح أشعار وقصائد ذات أهميّة كبيرة وجودة فنيّة عالية من ناحية شكلها ومضمونها، سمحت له أن يرتقي إلى طبقة فحول الشّعراء الإسلاميين في العصر الأموي، وقد تعددت الأغراض الشعريّة التي نظم فيها من فخر وهجاء ومدح وغزل ورثاء، غير أنّ الوصف والفخر والهجاء هي الأغراض الطاغية على ديوانه والغالبة في شعره، فهي الأكثر استخداما قد تفنّن وأبدع فيها؛ وذلك بفعل دوافع ذاتيّة في نفس الشّاعر وأيضا بسبب اختلاف المذاهب وسيطرت العصبيات القبليّة على الفكر الأموي.

لقد "كانت هذه العصبيات أو الخصومات القبلية موضوعا خطيرا، يُدلي كلّ شاعر فيه بدلوِه، ويحاول أن يأتي فيه بكل ما يستطيع من ثناء على قبيلته أو أزهار فخر يتوّجها بها، وفي الوقت ذاته يحاول أن يغض من خصومها بل يحاول أن يرميهم بكل ما يستطيع من حجارة هجاء وقذف"[1]. كان الشّعراء من جهة يتهاجون فيما بينهم ويهجون القبائل وأهاليها، ويسعى كلّ واحد منهم أن يدافع عن نسبه ويفخر بقبيلته، ومن جهة أخرى يأتون بأقذع القول ليحطّوا من قدر خصومهم ويعدّدوا معايبهم ومساوئهم، ومنه هجاء الطّرمّاح الذي غلب عليه التهكّم والسّخرية دون أن يفحش فيه إلا نادرا، ومن أبياته التي هجا بها قبيلة تميم المعادية لقبيلته قوله:

تَميمٌ بطُرْقِ اللُّؤْمِ أَهْـــدى مـــنَ القَطَـــا ولـــوْ سَلَكَـــتْ طُـــرْقَ المَكَـارِمِ ضَلَّتِ
أرىَ اللَّيْـــلَ يجْـلُـــوهُ النّهـــارُ، ولا أَرى خلال المخَـــازي عـــنْ تَميـــمٍ تَجَلَّـــتِ

[1] شوقي ضيف: التطور والتجديد في الشعر الأموي، ط6، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1952م، ص41.

وَلَـــو أنَّ برْغُوثًـــا علَـــى ظَهْرِ قَمْلَـةٍ يَكُـــرُّ علَـــى صفَّـــي تميـــمٍ لَوَلَّـــتِ[1]

وأمر الفخر كأمر الهجاء لم يختلف كثيرا عمّا كان عليه في العصر الجاهلي والإسلامي، فسار على نهج العصور السّالفة وحمل نفس المعاني والمضامين، إذ عمد الشّعراء على تِعداد مناقب قبائلهم وذكر مآثرها ومكارمها وبطولاتها وأيام حروبها والفخر بنسبهم، ومنه فخر الطّرمّاح بأصله:

أنا ابنُ بَني نَفْرِ بـنِ قَيْس بـــنِ جَحْـدَرٍ بـــي كـــلِّ عطَّـــافٍ إذا الخَيْـلُ وَلَّتِ
لَنَا من حِجـــــازَيْ طَيِّءٍ كُـــلُّ مَعْقِـــلٍ عزيـــــزٍ إذا دارُ الأَذَلّيـــنَ حُلَّـــتِ
لِكُـــلِّ أُنَـــــاسٍ مـــنْ مَعَـــدَّ عِمَـــارَةٌ لنا دِمْنَـــة آثارُهـــــا قـــد أُطِلّـــتِ
لنَا نِســـوَةٌ لـــمْ يجْـــرِ فيـــهِنَّ مَقْسِـــمٌ إذا مَـــا العَـــذَارى بالرّمَـــاحِ اِسْتُحِلَّتِ[2]

وأيضا نظم الطّرمّاح بن حكيم قصائد في مدح أمراء وحكام قبيلته وبعض إنجازات بني أمية وكان يهدف بها إلى التكسب والطمع في الهبات والعطايا، فهو كعديد من "الشعراء الذين كانوا يفدون على الخلفاء من الحجاز ونجد والعراق ينشدونهم مدائحهم ليأخذوا جوائزهم."[3] فكان يذكر حميد خصالهم وجميل صفاتهم.

فقال في مدح يزيد بن الملهب:

أَشَـــمُّ، كَثِيـــرُ بَـــوادي النَّـــوالْ قليـــلُ المَثَالَـــبِ والقـــادِحَـــه
خَطيـــبُ المَقَـــالَـــةِ، حَـــامي الذِّمـــارْ إذا خيـــفَتِ السَّـــوْءَةُ الفَـــاضِحـــه
هُـــو الغَيْـــثُ لِلْمُعْتَفيـــنَ المغيـــثْ بِفَضْـــلِ موائِـــدِهِ الرَّادِحـــه[4]

[1] الطّرمّاح: الديوان، ص74 ـ 77.
[2] المصدر نفسه، ص70.
[3] شوقي ضيف: التطور والتجديد في الشعر الأموي، ص54.
[4] الطّرمّاح: الديوان، ص86.

أمّا في ميدان الغزل فقد استمر ظهوره في عصر الشّاعر بتياريه الأول المعروف باسم الغزل الماجن الفاحش؛ الذي يصف فيه الشّاعر محاسن المرأة ومفاتنها دون تعفف أو تحرّج ولا يكتفي بمحبوبة واحدة، وأما الثاني فهو ما عُرف بالغزل العفيف العذري، الذي يكون فيه عفّة وصدق المشاعر البعيدة عن كل الشّهوات والملذّات، فهو طاهر نقي يكتفي الشّاعر فيه بحبيبة واحدة ولا يلجأ لغيرها. والطّرمّاح لم يكن من شعراء الغزل الفاحش، فكان غزله نابع من القلب لزوجته ومحبوبته وعبّر في شعره عن حبّه وشوقه وحنينه الدّائم لها، ومن ذلك قوله:

أَغَـــار عَـــلى نفْســـي لِسَلْمَـــةَ خَالِيـــا وَلَـــوْ عَـــرَضتْ لي كـلُّ بَيْضاءَ بَيْدَحِ
تَمَلَّـــحُ مَـــا اسْطَاعَتْ، ويَغْـلِبُ دونَهـــا هَوىً لَـــكِ ينْسِـــي مُلْحَـــةَ المُتَمَلِّـــحِ[1]

ويشكو بعده عنها واغترابه بمنطقة تسمّى "كرمان" ويدعوها أن لاتحزن لبعده وفراقه عنها، فيقول:

لَئِـــن مَـــرَّ في كَرْمَـــانَ ليْـــلي فَرُبَّمَـــا حَـــلا بَيْـــنَ تـــلَّيْ بابِـــلٍ فالمُضَيَّـحِ
فيَـــا سلْـــمَ لاَ تَخْشَـــي بِكَرْمـــانَ أَنْ أَرى أُقَسِّـسُ أَعْـــرَاجَ السَّـــوامِ الـمُـــرَوِّحِ
كَـــفَا حَزَنًا، يَـــا سَلْمَ، أنْ كـــانَ ذاهِبًـــا بِكَرْمَـــانَ بي حَـــوْلٌ ولـــمْ أتَسَـــرَّحِ[2]

[1] الطّرمّاح: الديوان، ص96.
[2] المصدر نفسه، ص94 ـ 95.

الفصل الأوّل:

غرض الهجاء وأثر البيئة الأمويّة فيه

1 تعريف الهجاء

2 أنواعه

3 تطوره الهجاء في الأدب العربي القديم

4 أوضاع البيئة الأمويّة

5 أثر الأوضاع الأمويّة في تطور الهجاء

يعدّ الهجاء من بين أهم الأغراض الشعريّة العربيّة وأبرزها على مرّ العصور الأدبيّة، حيث ساهمت عوامل عديدة في ازدهاره، إذ عُرف العربيّ قديما بسرعة غضبه للأشياء الساذجة، فكثيرا ما قامت الحروب لدوافع بسيطة، وخلال هذه الصّراعات كانت تُنظم مقطوعات وقصائد هجائيّة، بالإضافة إلى أنّ حياة العرب قامت على التّنافس الدّائم والنّزاع المتواصل، فكان الدّافع الأوّل من وراء هذا الفنّ الانتقاص من قيمة المهجو والتّنديد بمعايبه الشخصيّة ووصفه بصفات سلبيّة، وفي المقابل يرفع الشّاعر من نسبه ويفخر بقومه. لقد أبدع الشّعراء في تأليف الشّعر الذي يتناول هذا الفن وتنافسوا فيما بينهم في قوله، فكثرت قصائد الهجاء التي صنّف النّقاد بعضها ضمن أجود ما قال العرب.

1 تعريف الهجاء:

1.1 في المعنى اللغوي:

تناولت عدّة معاجم التّعريف اللّغوي للهجاء، منها ما قاله ابن منظور في معجمه الشهير لسان العرب: "هَجَا: هَجَاهُ يَهْجُوهُ هَجْوًا وهِجَاء وتَهْجَاء، ممدود: شتَمَهُ بالشّعر وهو خلاف المدح. قال اللّيث: هو الوقِيعَة في الأشعار. وروي عن النّبي صلّى الله عليه وسلم أنه قال: اللّهم إنّ فلانًا هجاني فاهْجُهُ اللّهم مكان هجاني، معنى قوله اهْجُهُ أي جازِهِ على هِجائه إيّايَ جزاة هجائه... والمرأة تهجو زوجها أي تذمّ صُحبته، وفي التهذيب: تهجو صُحبة زوجها أي تذمّه وتشكو صحبته.

قال أبو زيد: الهجاء القراءة، قال: وقلت لرجل من بني قيس أتقرأ من القرآن شيئا؟ فقال: والله ما أهجو منه حرفًا... ابن سيّده: والهجاء تقطيع اللّفظة بحروفها... وهَجُوَ يَوْمُنا: اشتدّ حرُّهُ. والهجاة: الضّفدع، والمعروف الهَاجَةُ."[1]

[1] ابن منظور: لسان العرب، د ط، م15، دار صادر، بيروت، لبنان، د ت، ص353.

وعرّفه عالم اللغة الفيروزآبادي في قاموسه المحيط بقوله: "هَجُوَ وهَجَاهُ هَجْوًا وهِجاءًا: شتمه بالشّعر. وهَاجَيْتُهُ هَجَوْتُهُ وهَجَاني، وبينهم أُهْجِيّةٌ وأُهْجُوَّةٌ يتهاجَوْنَ بها. والهجاء، ككساءٍ. تقطيع اللّفظة بحروفها، وهَجَيْتُ الحروف، وتَهَجيتها، وهذا على هجاء هذا: على شكله. وهجُوَ يومُنا: اشتدّ حرّه."[1]

أما في المعجم الوسيط فجاء في مادة هجا: "الكتاب، هَجْوًا وهِجاءٌ: قرأه وتعلّمه وفلانًا هَجْوًا وهِجاءٌ: ذمّه وعدّد معايبه. ويُقال: المرأة تهجو صحبة زوجها... هجاه مُهاجاةٌ، وهِجاءٌ: هجا كلّ واحد منهما صاحبه. هَجَّى الصبيّ الكتاب: علّمه إيّاه. الأُهْجُوَّةُ: ما يُتَهَاجى به، كالقصيدة أو القطعة الشّعريّة. (ج) أهاجي. الهجّاء: من يُكثر سبّ غيره وتعديد معايبه، يُقال رجل هجّاء."[2]

إنّ هذه التعاريف وغيرها من المفاهيم التي وردت في معاجم وقواميس أخرى قد اتّفقت في مجملها على تقديم المعنى اللّغوي للهجاء، فإن اختلفت فيما بينها في طرق التّعبير فإنّها لم تختلف في إيراد معناه اللّغوي، فكلمة الهجاء إما تدلّ على السّب والشّتم والذم، وذكر معايب ومثالب الأعداء والخصوم ووصفهم بقبيح الصّفات وسلبهم الخصال الفاضلة، بهدف التّشهير بهم والانتقاص من مقامهم والإطاحة بمكانتهم بين الآخرين، أو أنّها تدلّ على معنى بعيد كلّ البعد عن المعنى الأوّل وهو تهجيّة الحروف خلال مرحلة تعلّمها أو أثناء عملية القراءة، وتطلق اللّفظة كذلك على اسم الضّفدع وإن كانت قليلة الاستخدام للدّلالة عليه، غير أنّ المعنى الأوّل هو الأكثر ارتباطا وتعلّقا بمصطلح الهجاء والأقرب إليه، فقد كثُر استعماله للتّعبير عن هذا الجانب أكثر من غيره.

[1] الفيروزآبادي، مجد الدّين محمد بن يعقوب: القاموس المحيط، تح: أنس محمد الشامي وزكريا جابر أحمد، د ط، م1، دار الحديث، القاهرة، مصر، 2008م، ص1687.

[2] أحمد أحسن الزيات وآخرون: المعجم الوسيط، ط4، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، مصر، 2004م، ص 975.

2.1 في المعنى الاصطلاحي:

يعتبر الهجاء من فنون الشّعر الرئيسيّة ومن الأغراض الأولى الأكثر توظيفا من قبل الشّعراء؛ ممّا دفع النقّاد والدّارسين إلى تناوله بالتّعريف والدّراسة والتّحليل، حيث إنّ الشّعراء جعلوا من هذا الفنّ سلاحا وجّهوه نحو خصومهم، وسعوا عبره إلى الإطاحة بمنازعيهم باستخدام قوّة ألسنتهم وفصاحتها، وكانت هذه القوّة تتمثّل في أذية النّفوس وإلحاق الألم بها، وهو ألم أشدّ وقعا وتأثيرا من ذلك الظّاهر السّطحي، فقد تعمّد الشّاعر أن يذكر في هجائه ما قد يُؤدي عدوّه عبر جعل صفاته وسلوكياته مناقضة ومخالفة لمُثل المجتمع وقوانينه.

عالج النّقاد العرب القدامى في دراساتهم وفي مؤلّفاتهم أغراض الشعر العربي، واهتموا بتفسيرها وقسّموها إلى أغراض أساسيّة يتفرع عنا أغراض أخرى ثانويّة، ومنهم ابن رشيق القيرواني الذي قال في كتابه العمدة: "أغراض الشّعر خمسة: النّسيب والمدح والهجاء، والفخر والوصف. وقال قوم الشّعر نوعان: مدح وهجاء. فارجعوا الرثّاء والافتخار والتشبيب والوصف إلى المدح. قال الهجاء ضدّ ذلك كلّه."[1] إنّ الهجاء لصيق بغرض الفخر في مواضع كثيرة، فهما غرضان مرتبطان ببعضهما البعض؛ إذ أنّه متى هجا الشّاعر خصمه كان لابدّ له من أن يفخر بذاته وبنسبه ليُعلي من مكانته ويزيد من عظمة جماعته، وفي الوقت نفسه ينقص من قيمة المهجو ويلحق الخزي بمن ينتمي لهم، والهجاء مناقض لغرض المدح الذي يذكر فيه الشّاعر الصّفات الحميدة والخصال النّبيلة لممدوحه، ويحاول أن يبثّ فيه كلّ المكارم والفضائل، على خلاف الهجاء الذي يقوم على سب وشتم أخلاق المهجو وتعييب لصفاته ومبادئه.

وذهب أبو هلال العسكري في مؤلفه الصّناعتين إلى القول: "أغراض الشّعراء كثيرة ومعانيهم متشعبة جمّة، لا يبلغها حد الإحصاء، فذكر أكثرها استعمالا وهو المدح والهجاء

[1] ابن رشيق القيرواني، أبو علي الحسن: العمدة في محاسن الشّعر وآدابه، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، ط1، ج2، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1934م، ص110.

والوصف والنّسيب والمراثي، والفخر"[1]. اتّفق أبو هلال العسكري مع ابن رشيق في كون الهجاء من بين الأغراض الأكثر استخداما في الشّعر، فهو من أهم فنون الشّعر العربي ومن أبرزها، فيه تعبير عن عاطفة صادقة نابعة عن غضب الشّاعر نحو خصومه، لذلك وظّف بشكل ملفت من قبل الشّعراء بالأخص الجاهليّين والأمويّين منهم.

وفي حديث القاضي الجرجاني عن الهجاء قال: "فأمّا الهجو فابلغه ما جرى مجرى الهزل والتّهافت وما اعترض بين التّصريح والتّعريض، وما قربت معانيه، وسهُل حفظه، وأسرع علوقه بالقلب، ولصوقه بالنفس، فأما القذف والإفحاش فسُباب محض، وليس للشّاعر فيه إلّا إقامة الوزن وتصحيح النّظم"[2]. كان عل الهجاء أن يأتي سهل الألفاظ، واضح التّراكيب، مفهوم المعاني، ليتمكّن المتلقّين عامّة من فهم محتواه ويسهل عليهم حفظه، وبالتّالي يشتهر الشّعر ويكثر تداوله وانتشاره.

وأما النّاقد سراج الدّين بن محمد فيقول: "الهجاء فنّ من فنون الشّعر الغنائي، يعبِّر به الشّاعر عن عاطفة الغضب أو الاحتقار أو الاستهزاء ويمكن أن نسميه فن الشتم والسباب، فهو نقيض المدح"[3]. إنّ الشّعر العربي جاء في أغلبه غنائي وجداني يعبّر فيه المبدع عن مشاعره الجيّاشة وأيضا ينقل عبره تجاربه، والهجاء من أغراض الشعر العربي يجسد عبره الشّاعر عاطفته وشعوره اتّجاه المهجو بغض النّظر عن جنسه، قد تكون عاطفة الحقد والكره والغضب، فيسعى إلى ذكر عيوب هذا العدو والتّفصيل فيها والانتقاص من مكانته والحط من نسبه وانتمائه وأصله، كما يذكر مختلف المعاني التي من شأنها أن تضع المهجو في أدنى الدرجات، وفي المقابل يعمل على الفخر بنفسه وبأصله ويعلي من قيمته.

---

[1] أبو هلال العسكري: الصناعتين ـ الكتابة والشعر ـ ، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، مصر، 1952م، ص131.

[2] القاضي الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، ط1، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، 2006م، ص30.

[3] سراج الدين محمد: الهجاء في الشعر العربي، موسوعة المبدعون، د ط، دار الراتب الجامعية، بيروت، لبنان، د ت، ص06.

2 أنواع الهجاء:

من خلال التأمّل في قصائد ومقطوعات هذا النّوع من الأغراض الشعريّة يتبيّن أنه ينقسم إلى عدّة أقسام، وِفقا للموضوعات التي يتناولها الشّاعر كالموضوعات الأخْلاقِيَّة والخَلقيَّة والسياسيّة والدينيّة، وأيضا ينقسم تبعا للأفراد الموجّه إليهم هذا الهجاء، فمن الممكن أن يكون المهجو شخص واحد أو أن تكون جماعة بأكملها، ومن هذه الأنواع يوجد:

1.2 الهجاء الشّخصي:

يرجع ظهور شعر الهجاء الشّخصي إلى الخلاف والنّزاع الذي يقع بين شاعرين أو أكثر أو بين شاعر وأحد أفراد عصره، "فالهجاء هنا سجل ساذج لمعركة بين فردين يتشاتمان، ترى فيه كل أنواع العنف الذي يصحب مثل هذه الظّاهرة. فيه الاستعلاء على الخصم بكلّ شيء ـ بالمال وبالأهل والحسب ـ وفيه السّباب ـ المقذع في كثير من الأحيان، والذي يتعرّض لأغلظ العورات دون احتشام،"[1] حيث يميل فيه المبدع إلى تصوير مشاعر الغضب، ليحتوي بذلك على معاني السّب والشّتم وذكر العيوب الشخصيّة، قد يتجاوز فيه الشّاعر حدود الأخلاق فيستعمل ألفاظ تخالف معايير المجتمع وتهين المهجو وتنزل من قدره إلى أقصى الدرجات، وقد يوظّف الشّاعر فن الهجاء مع مراعاته لكرامة هذا المهجو فلا يعمد إلى تجريحه. ومن أمثلته قول الحطيئة في أمّه:

جـــــزاكِ الله شَـــــرًّا مـــن عـــجـــوزٍ وَلَـــقَّـــاكِ العُـــقـــوق مـــن البـنـيـنِ
فَقَـد سُـوِّسـت أمـــــر بَـنـيـك حتى تَـــــرَكْتِـــهُـمُ أدقُّ مـــن الطـحـيـنِ
لسـانـك مـبـرد لـــم يـبـق شـيـئـا ودرُّك درُّ جـــاذبـــة دهـــيـــن[2]

[1] محمد حسين: الهجاء والهجّاؤون في الجاهلية، د ط، مكتبة الآداب بالجماميزت، الإسكندريّة، القاهرة، 1947م، ص96.

[2] الحطيئة: الديوان، رواية وشرح: ابن السّكيت، دراسة: مفيد محمد قميحة، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1993م، ص187.

فالشّاعر في هذه الأبيات يهجو أمّه التي نالت عقوق أبنائها لها بسبب شرّها وعدم قدرتها على تربيتهم التربية الصّحيحة، ليصبح وضعه وحال إخوته سيّئا نتيجة لفسادها ولعدم قيامه بواجبها نحوهم، وهو بذلك يحمّلها المسؤولية كاملة.

وأمّا الهجاء الذي يقع بين شاعرين قد أنتج ما يعرف بفن النقائض، وهو "أن يتّجه شاعر إلى آخر بقصيدة هاجيا أو مفتخرا، فيعمد الآخر إلى الرد عليه هاجيا أو مفتخرا ملتزمًا البحر والقافيّة والروي الذي اختاره الأوّل، ومعنى هذا أنه لابدّ من وحدة الموضوع."[1] اشتهر شعراء كثر في نظم النّقائض الشعريّة، حيث نقلوا فيها النّزاعات والخصومات التي قامت فيما بينهم نتيجة لأسباب مختلفة، ومن ذلك قول الفرزدق في هجاء قوم جرير:

أَمـــــا كُليـب بـنُ يَربُـوع فَليْـسَ لَـهُم عِنْـــــدَ التَفَـــارُطِ إيـــــراد ولا صَـــدَرُ
مخــلّفــون ويَــقــضي النَّــاسُ أمـــرهــم وهــم يــغيــب وفــي عمـياء مـا نظروا[2]

فردّ عليه جرير بنقيضته:

أَرْجُـــو لتَغْـــلَب إذا غَبّـــت أمُـــورهُـــم أَلَّا يُـــبَـارَك فِـــي الأَمْـــرِ الذي ائْـــتَـمَـــرُوا
خَـابَـــت بنـــو تَغْلـــب إذ ضـــلَّ فـــارطُهم حَـــوض المكـــارِم، إن المَجْـــدَ مُـبْـتَـدَرُ[3]

كما اهتم العرب قديما بحفظ الأنساب والشّرف وعملوا على الفخر بهما، وكان في منظورهم المرأة هي من تحط من هذا النسب وتجلب العار لأهلها وللجانب الذي تنتمي إليه، وأمّا الذّكر فهو موضع الفخر الدّائم والمحور الذي تقوم عليه القبيلة. وفي أثناء الحروب تطرق الشعراء إلى تعييب خصومهم وذلك عبر هجاء نسائهم والتّقليل من قيمتهّن وقيمة عائلاتهن وعشيرتهن، فعُدّت بمثابة وسيلة أولى لهذا الهجاء، وشاع هذا النّوع في العصر الجاهلي، الإسلامي، الأموي، العباسي وفي عصور الانحطاط، والعصر الأموي هو الأكثر

[1] أحمد الشّايب: تاريخ النّقائض في الشّعر العربي، ط2، مكتبة النّهضة المصريّة، القاهرة، مصر، 1954م، ص03.
[2] المرجع نفسه، ص04.
[3] المرجع نفسه، ص05.

تطرّقا إلى هجاء النساء.[1] والدّليل على هذا كثرة الأشعار التي لجأ فيها الشّعراء إلى هجاء نساء أعدائهم، فكانت المرأة أساس في هذا الفن حيث يسعى المبدع عبرها إلى إنزال شرف المهجو، ومن مثاله هجاء الفرزدق لزوجة جرير حين قال:

كانَـــت مُنَـــافِقَـــةَ الحَيَـــاةِ وَمَـــوْتُـــهَـا خِـــزْيٌ عَـــلَانِيَـــةٌ عَـــلَيْـــــكَ وَعَـــــارُ
فَلَئِـن بَكَيْـتَ عَلَـى الأَتَـانِ لَـقَـدْ بَكَـى جَـــزْعًـــــا غَـــدَاةَ فُـرَاقِـهَـــا الأَعْيَـــارُ
تَـبْـكِـي عَلَـــى اِمْـرَأَةٍ وَعِنْـــدَكَ مِثْـلُـهَـا قَـعـسَـــاءُ لَيْـــسَ لَهَـــا عَلَيْـــكَ خِـــمَـارُ
وَلَتَـــكْفِيَنَّـــكَ فَـقْـــدَ زَوْجَـتِـــكَ التِـي هَـلَـــكَـت مُوَقَّـعَـــةُ الظُّهُـــورِ قِـصَـــارُ[2]

لم يتوقّف شعراء الهجاء عند هذا الحد في تعييب خصومهم بل تجاوزوه إلى هجاء الخِلقة ورسم المهجو في صورة كاريكاتورية ساخرة، فكان العيب الخلقي مصدر هام للهجاء من قصر القامة، دمامة الوجه، حجم الأنف، كراهة الرائحة.[3] لقد تناول الشّاعر العيوب الجسديّة والعاهات الخلقية لخصمه وترصّدها حتّى يجعلها وسيلة للسّخرية منه والاستهزاء به، ومن مثاله قول أحد الشّعراء:

ذَقَـــنٌ نـــاقِصٌ وأنـــفٌ غـليـــظٌ وجَـبـيـــنٌ كَـســـاحَـــةِ القُسْـــطـــارِ
قامـــــةُ القُصْـعُـلِ الضـعيـفِ وكـــفٌ خِـنْـصِـراهـــا كـذيـنـقِ القـصّـــــارِ[4]

في البيتين هجا الشّاعر ملامح المهجو الخَلقيّة من كبر الأنف واتساع الجبين وضعف الجسم، فقديما كان يُفخر بضخامة الأجساد التي تعدّ من علامات القوّة، ويمكن القول أن هذا النّوع من الهجاء فيه تعدّي على خلق الله، فالله عزّ وجلّ هو من يخلق الناس في الهيئة التي يريدها والبشر غير مسؤولين عن أشكالهم.

---

[1] ينظر: محمد سامي الدّهان: فنون الأدب العربي، الفن الغنائي، الهجاء، ط2، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1982م، ص ص12 ـ 14.

[2] أحمد حسن الزيات: تاريخ الأدب العربي، ص118.

[3] ينظر: محمد سامي الدهان: فنون الأدب العربي، الفن الغنائي، الهجاء، ص26.

[4] المرجع نفسه، ص28.

2.2 الهجاء الأخلاقي:

في هذا النّوع من الهجاء يتناول الشّاعر مختلف الصّفات الذّميمة والمنحطّة التي كان ينبذها العربي منها: الجشع، البخل، الغدر، عدم حفظ السر، النميمة، الضّعف... وغيره من السّمات الأخرى، فقد اشتهر العربيّ قديما على الرّغم من عصبيّته وسرعة غضبه بأخلاقه الكريمة وعاداته الشّريفة وتغنى بها المبدعون في أشعارهم، وفي الجانب الآخر قاموا بهجاء ما يناقض فضائلهم ومبادئهم النّبيلة. وأمثلته في الشعر العربي القديم كثيرة، منها ما صوّر به الشّاعر طرفة بن العبد خصمه الذي اتسم بأخلاق لا تتماشى مع صفات المروءة، إذ كان يمتهن فعل النميمة، وذلك ورد في قوله:

وفَـرِّق عـــن بيتِـــكَ سعْـدُ بـــن مـــالِك وعَـمْـــرًا وعوْفًـــا مـــا تَـشـــي وتـقـــولُ
وأنـــتَ علـــى الأدنَـــى شَمـــالٌ عَـرِيَّـــةٌ شـــاميّـــةٌ تَـــزْوى الـوجُـــوهَ بـلـيـــلُ[1]

تميّزت الحياة العربيّة القديمة بصعوبتها في مختلف الجوانب، هذه الصعوبة فرضت على العربيّ تحلّيه بنمط خاص من الأخلاق، فكان القويّ صاحب سلطة ونفوذ وأمّا الضعيف فعانى من حياة ذليلة ومن تعرضه الدائم للظلم، حيث كان هذا الضّعيف الذي يمتهن الحرف والصناعات البسيطة يستغلّه الشّاعر ويلجأ إليه ليكون موضوع أساسي في هجائه،[2] فكثيرا ما تعرّض الفرزدق للهجاء من قبل شعراء عيّروه بنسبه الذليل الوضيع والبسيط البعيد عن الشّرف والرّفعة، إذ كان أهله يشتغلون بالحدادة، فقال فيه جرير:

مـــا بـــالُ أُمِّـــكَ إذ تَـسرْبَـــلَ دِرْعُـهـــا ومـــن الحديـــدِ مـفـاضَـــةَ سِـــرْبـــالِـي
حَمَـمْـتَ وجْهِـكَ فـوْقَ كيـرِكَ قائِـمًـا وسـقيْـتَ أُمَّـــكَ فِـضْـلَـــةَ الجِـــرْيـــالِ
فانـفُـخ بكيـرِكَ يـــا فرزْدقُ وانـتـظِـر فـــي كـرْنَـــبـــاءِ هديَّـــة القـفَّـــالِ[3]

[1] محمد سامي الدهان: فنون الأدب العربي، الفن الغنائي، الهجاء، ص44.
[2] ينظر: المرجع نفسه، ص42.
[3] المرجع نفسه، ص26.

في هذه الأبيات يتجسّد احتقار جرير للفرزدق، حيث كان هو ووالدته يعملان في الحدادة ليكتسبا قوت يومهما، وإن كان العمل شريف ليس فيه عيب يذكر إلّا أنّ المجتمع العربي في العصور السّابقة كان طبقي يبجّل من ينتمي إلى طبقات النّبلاء والملوك، وينبذ كل شخص صُنّف في الدّرجات السّفلى، فهو لا يمتلك المال ولا الجاه لذلك لن يحظى بالتقدير ولن يكتسب المكانة البارزة والمرموقة، فكان هذا الأمر موضوع للهجاء بين الأعداء والمتخاصمين من الشّعراء وغيرهم.

إن كان الهجاء الخَلقي يقوم بتعييب العاهات الجسميّة فإنّ الهجاء الأخلاقي يعيّب الجانب المعنوي والنّفسي للإنسان من خيانة وغدر وكذب وبخل، حيث اتخذه الشّعراء وسيلة لهجاء أعدائهم، فكثرت الأشعار والقصائد التي تناولت هذا النّوع من الهجاء على امتداد العصور الأدبية العربيّة. قد قال طرفة بن العبد في هجاء البخيل:

أَرى قَبْرَ نَحَّامٍ بَخِيلٍ بِمَالِهِ كَقَبْرِ غَوِيٍّ فِي البَطَالَةِ مُفْسِدٌ
تَرَى جَثْوَتَيْنِ مِن تُرابِ عَلَيْهِمَا صَفَائِحُ صُمٌّ مِن صَفِيحٍ مُنَضَّدِ[1]

مجّد العرب صفتي الجود والكرم وجعلوهما أساسا في حياتهم حتّى أنّهم تنافسوا على إكرام ضيوفهم وجيرانهم ليتمّ وصفهم على أنّهم من أكرم البشر، ويقوم الشعراء بالتّغني بجودهم في أشعار المدح، وفي الجانب الآخر عيّبوا البخل والطّمع ونفروا منه وكان من يتّصف به يشكّل ثقلا وعبئا على مجتمعهم، فهجوا الإنسان البخيل في أشعارهم ووصفوه بأقبح الصّفات وشبّهوه بصور مختلفة توحي بفساده، والشّاعر في البيتين ذمّ البخيل وشبهه وهو في قبره بعد أن بخل بماله في حياته كقبر ذلك المبذّر لماله في دنياه.

[1] طرفة بن العبد: الديوان، شرح: الأَعْلَمِ الشَّنْتَمَري، تح: دريّة الخطيب ولطفي الصقّال، ط2، المؤسّسة العربيّة، بيروت، لبنان، 2000م، ص48.

3.2 الهجاء الدّيني:

برز هذا الصّنف من الهجاء على الأخصّ في عصر صدر الإسلام مع ظهور الدين الجديد، الذي رفض أغلب العرب في بدايته الدخول فيه، وعملوا على القضاء عليه ومحاربته بمختلف الوسائل سواء بقوة السّلاح أو بألسنة شعرائهم وخطبائهم، فقد "شُهر سلاح الشّعر بجانب سلاح الحرب منذ بدأ الصّراع بين الإسلام وخصومه، فتلاحم الفريقان باللّسان كما تلاحما بالسنان ودفع كلّ فريق بشعرائه إلى المعركة"[1]، إذ وقعت كثير من الحروب بين المسلمين وأعدائهم المشركين، وكان يُنظم خلال هذه الصّراعات أشعار في الهجاء ووصف الخصوم بالضّعف والبعد عن طريق الحق، وصاحب الهجاء على الدّوام غرض الفخر بالقوّة والشّجاعة والإقدام وكثرة العدد بالنّسبة للجانب الذي يدعمه الشّاعر، ممّا نتج عنه عديد من النّزاعات الكلامية بين شعراء الإسلام وشعراء الشّرك، وكلّ فريق منهما دافع عن دينه.

والنّبي صلّى الله عليه وسلّم كان أعلم بوقع هذه الحرب الهجائية، "وما تترك من أثر في نفوس الناس، فنظم الدعاية حول الدين، وعني بالرد على شعراء قريش، ناديا لذلك بعض الشعراء من المسلمين، فكان الهجاء والقتال متلازمين في نشر الدعوة."[2] ومن أبرز الشعراء الإسلاميّين حسّان بن ثابت الذي نظم قصائد كثيرة في هجاء المشركين ومدح النّبي صلّى الله عليه وسلم، فقال وهو يصوّر الوضع بين الفريقين ويتوعّد المشركين:

لَنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مِن مَعَدٍّ سِبَابٌ أو قِتَالٌ أو هِجَاءُ
فَنُحْكِمُ بِالقَوَافِي مَنْ هَجَانَا وَنَضْرِبُ حِينَ تَخْتَلِطُ الدِّمَاءُ[3]

وقال في هجاء سهم بن عمرو بن هصيص وعمرو بن العاص بن وائل:

والله مافي قريش كلّها أكثر شيخا جبانا فاحشا غُمرا

[1] سامي مكى العاني: دراسات في الأدب الإسلامي، د ط، مطبعة المعارف، بغداد، العراق، 1968م، ص83.
[2] محمد حسين: الهجاء والهجّاؤون في الجاهلية، ص175.
[3] حسّان بن ثابت: الديوان، ط2، شرح: عبد أ. مهنّا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1994م، ص20.

أدبّ أسلع سفيرا له ذُأَبٌ كالقرد يعجم وسط المجلس الحُمرا
هُذْرٌ مشائيمُ محرومُ ثويّهمُ إذا تروّح منهم زود القمرا
مابال أمّك زاغت عند ذي شرف إلى جذيمة لمّا عفّت الأثرا[1]

ونظم عبد الله بن رواحة مقطوعة في هجاء أبي سفيان الذي أخلف موعده في غزوة بدر مذكّرا إيّاه بالهزيمة التي لحقتهم، فعيّرهم بعدم التزامهم بوعودهم وبضعفهم وجبنهم حيث ألحق جيش المسلمين بهم هزيمة نكراء، فقال فيها:

وعَدْنَا أبا سفيانَ بدرًا فلم نَجِدْ لمِيعادِه صدقًا وما كانَ وافيا
فأقسمُ لو وافَيْتَنَا فلقيْتَنَا لأُبْتَ ذليلًا وافْتَقَدَتْ الموالِيا
تركْنَا به أوصالَ عُتْبَةَ وابنَه وعمرًا أبا جَهْلٍ تَرَكْناهُ ثَاوِيا[2]

حملت القصائد معاني إسلاميّة دينيّة عيّرت المشركين من قريش وغيرهم بالكفر والبعد عن الصّراط المستقيم، فهم قد أوغلوا وتعمّقوا في جهلهم، ويمكن القول أنّ الدوافع الدينية الصادقة هي من حفزت شعراء الإسلام على الفخر بانتمائهم إلى الدّين الإسلامي، وهجاء الكّفار وتحذيرهم بأنهم إن لم يسلموا سوف ينالوا الخزي والذل في الحياة الدّنيا وفي الآخرة، "على أنّ هذه القيّم الإسلاميّة الجديدة التي دخلت في هجاء الشّعراء في عصر الدّعوة استمرّت في عصر الخلفاء الرّاشدين، فهذا معاذ بن يزيد بن الصعق يهجو المرتدّين بخروجهم على الدّين الإسلامي، ويصفهم بالكذب والطّمع،"[3] فقال:

بنِي عَامَر أيْنَ أَيْنَ الفرارُ من الله والله لا يغْلَبُ
منَعْتُم فرائضَ أموالِكم وتركُ صلاتِكُمْ أعجبُ[4]

---

[1] حسّان بن ثابت: الديوان، ص13.

[2] عبد الله بن رواحة: الديوان، ودراسة في سيرته وشعره، تح: وليد قصاب، ط1، دار العلوم، الرياض، السّعوديّة، 1981م، ص90.

[3] ابتسام مرهون الصفار: الأمالي في الأدب الإسلامي، د ط، دار المناهج، عمان، الأردن، 2006م، ص238.

[4] المرجع نفسه، 238.

4.2 الهجاء السياسي:

هو الهجاء الذي ينشأ عن عصبيّة للانتماء الدّيني أو المذهبي أو الوطني، حيث "يقوم على العصبيّة للوطن، فيهاجم كل ما يؤديه أو يهدّد كيانه، فالشّاعر هنا يعبّر عن جماعة أو أحدها، ولا يكاد يحس شخصيته إلا في حدود هذه المجموعة، التي يرتبط مصيره بها كل الارتباط، فهو يفني فيها وجوده، ويتجرد من نزعاته وأهوائه، ليحسّ بإحساسهم، ويرى بأعينهم، ويسمع بآذانهم"[1]. إنّ الشّاعر يفخر في غالب الأحيان بانتمائه لجماعة معينّة ويدافع عنها في أشعاره ويُعلي من نسبها ومكانتها بين الجماعات الأخرى، ولا يسلم من شرّ هجائه كل من يحاول التعرّض لها، والهجاء السياسي مظهر من مظاهر العصبيّة القبليّة بالأخص تلك التي عُرفت في العصر الجاهلي والأموي. من نماذجه ما وقع بين شعراء القبائل العربيّة الجاهليّة في هجائها لبعضها البعض، وكذلك بين شعراء الأحزاب والمذاهب التي سيطرت على مظاهر الحياة السياسيّة والاجتماعيّة والثقافيّة في العصر الأموي.

في العصر الجاهلي قام الهجاء السياسي على العودة إلى الماضي وذكر العيوب والمثالب والمساوئ، وقد نظم الشّعراء فيه قصائد مطولة أو مقطوعات قصيرة، تعبيرا عن العداوة القائمة بين القبائل الحاملة لكلّ مشاعر الغضب والكره، فصوّرت في أغلب الأحيان مشاهد القتل والنزاع والدم والحروب، وبمجيء الإسلام قلت العصبيّة القبليّة، وظهر الشّعر السياسي في شكل جديد قام بين الفئة التي أيّدت النّبي صلّى الله عليه وسلّم وفئة ثانية مناقضة وهي التي مثّلت جانب المشركين، غير أنّه بعد عصر صدر الإسلام عادت هذه العصبية نتيجة الصّراع بين الأحزاب السياسيّة الأموية، أين كان كل حزب يحاول تقريب الشّعراء منه ويحرّضهم على نظم قصائد في هجاء غيرهم، ليقوى غرض الهجاء السياسي بفضل هذا الدافع.[2] فكان الهدف منه كسب أكبر عدد من المساندين والمؤيّدين لهم.

[1] محمد حسين: الهجاء والهجّاؤون، ص114.

[2] ينظر: محمد سامي الدهان: فنون الأدب العربي، الفن الغنائي، الهجاء، ص ص58 ـ 60.

ومن نماذج الهجاء السياسي قول الشّاعر الكميت في هجاء بني أميّة:

سياسةٌ لا كمن يرعَى النَّ اسَ سواءٌ وَرِعيةَ الأنْعامِ
لا كَعبْدِ المليكِ أو كَولِيد أو سُليْمَانَ بعْدُ أو كَهِشام[1]

وملخّص القول هو أنّه إذا كان الهجاء الشّخصي أساسه التعبير عن الذّات والمشاعر والعواطف الخاصّة ونقل التجارب والمواقف الشّخصيّة، فإنّ شعر الهجاء السياسي يقوم على الإحساس والشّعور بالأفراد المحيطين بالشّاعر والمنتمين له، سواء مثّلوا فئة معيّنة أو جماعة أو قبيلة أو أمّة بأكملها، فهو يسعى إلى نقل طموحاتهم وإصلاح أحوالهم عبر فضح الأنظمة الفاسدة وإعلاء مكانتهم ووضعهم في الموضع اللّائق بين الفئات الأخرى من خلال هجاء أعدائهم، ومن بين صوره هجاء الحكّام والخلفاء فقد هجا المتلمس عمروا بن الهند حين قال:

أَطْرَدْتَني حذَرَ الهجاء ولا واللات والأنصاب لا تئل
ورهَنْتَني هندًا وعرضك في صحف تلوح كأنّها خلل
شرَّ الملوك وشَرّها حسبا في النّاس من علموا ومن جهلوا
الغدر والآفات شيمته فافهم؛ فعرقوب له مثل[2]

وهجا الشّاعر دعبل الخزاعي الخليفة العباسي هارون الرّشيد متّهما إياه بالظُّلم والفساد وعدم الحرص على الأمانة التي بين يديه، فقال:

وَعَاثَتْ بَنُو العَبَّاسِ فِي الدِّينِ عَيْثَة تَحَكَّمَ فِيه ظَالِمٌ وَظَنِينُ
وَسَمُّوا رَشيدًا لَيْسَ فِيهِم لِرُشْدِهِ وهَا ذَاكَ مَأمُونٌ وَذَاكَ أَمِين
فَمَا قُبِلْتَ بالرُّشْدِ مِنْهُم رِعَايَةٌ ولا لِوَلِيٍّ بِالأَمَانَةِ دينُ[3]

[1] محمد سامي الدهان: فنون الأدب العربي، الفن الغنائي، الهجاء ص62.

[2] المتلمّس الضبعي: الديوان، رواية: الأثرم وأبي عبيدة عن الأصمعي، تح: حسن كامل الصيرفي، د ط، الشركة المصريّة للطباعة والنشر، مصر، 1970م، ص42 ـ 45 ـ 46.

[3] جمال طالبي قره قشلاقي وعبد الغني ايرواني زاده ونصر الله شاملي: "السّخريّة السياسيّة في شعر دعبل الخزاعي"، مجلّة الجمعيّة العلميّة الإيرانيّة للّغة العربيّة وآدابها، عدد25، 2012م، ص07.

3 تطوّر الهجاء في الأدب العربي القديم:

يعدّ الهجاء من أبرز وأهم الأغراض الشعريّة العربيّة، حرص الشّعراء العرب على توظيفه في قصائدهم على اختلاف العصور الأدبية، انطلاقا من العصر الجاهلي مرورا بعصر صدر الإسلام أين قلّ انتشاره إلى حدّ ما، وبعدها شاع في العصر الأموي وعاود الظهور والاتّساع بشكل أقوى مما كان عليه الوضع في العهد الجاهلي، وصولا إلى الفترة العباسيّة حيث قلّت العصبيّة القبليّة بشكل كبير جدّا، فجاء الهجاء كأداة للسخرية وإثارة الضحك في شكل مقطوعات يذكر الشّاعر فيها المعايب الشخصية ولا يتعداها، إذ لم يعد يعنيه نسب المهجو أو أصله.

لقد عرفت أوّل العصور الأدبيّة شيوعا كبيرا لغرض الهجاء، فارتبط "واتصل بالأيام والحروب، وإظهار بطولة القبيلة في مواجهة القبائل الأخرى، وإظهار تفوّقها على غيرها، واتّصافها بالتعقل إزاء تهوّر الآخرين... وهذا النمط من الهجاء كان بمثابة تعبير عن روح الجماعة، من خلال رؤية الشاعر."[1] كان الشّاعر لسان قبيلته يسعى إلى الفخر بقيمتها وبتميّزها والتّباهي بنسبها الشّريف وبعظيم شأنها، فيذكر انتصاراتها في الحروب ويذكّر المتلقي بالهزائم التي ألحقتها بالخصوم، وليتمكّن من أن يرفع من مكانتها بصفة أكبر كان يهجوا أعدائها ويعمل على تحقيرهم وإذلالهم عبر الكشف عن عيوبهم للملأ، والنّظر إليهم نظرة احتقار وتعالي، وأيضا ينسب إليهم كل الصّفات الذّميمة والمخزية كالجبن والذل والغدر وانتفاء المكارم. وقد نشأ في العصر الجاهلي كثير من شعراء الهجاء لازالت كتب الأدب والتّاريخ تخلّد أسماءهم إلى اليوم منهم: الأعشى وعروة بن الورد والحطيئة، وهذا الأخير يعدّ من أبرز من هجا في هذا العهد، فلم يسلم من لسانه أحد حتى أنه قد هجا نفسه، فقال:

أبَــت شَفَتَــايَ اليَــــوْمَ إلاّ تَــكَــلُّــمًا بشــرٍّ فــمــا أَدْري لــمَــــن أنــا قائِــلُــه

[1] حسن عبد الجليل يوسف: الأدب الجاهلي، قضايا، وفنون، ونصوص، ط1، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2001م، ص102.

أرى لِـــي وجهًـــا شـــوّهَ اللهُ خَـلْـقَـــهُ فقُـبِّـــحَ مـــن وجْـهِـــي وقُبِّـــحَ حـامِلُهُ [1]

وقال الأعشى هاجيا علقمة:

لَـعَـمْـري لئِـن أَمْسَـى منَ الحَيّ شَاخصًا لَـقَـد نَـــالَ خَـيْـصا مِـنْ عُـفَيْـرَةَ خائِصًا
إذاَ جُـرِّدَت يَـوْمًـــا حَـسِـبْـتَ خَـميصَة عَلَيْـهـا وَجِـرْيـــالا يُـضيـــئُ دُلامـصًـا [2]

إلى أن يصل إلى قوله:

تَبـيـتُـونَ فـــي المَـشْـتَـى مـلاءَ بُـطونِكُم وجـــاراتِـكُـم غـــرثـى يـبِـتْـنَ خـمائصا [3]

كان لهذا الهجاء وقع كبير في نفس علقمة، فالشّاعر هنا يصفه ومن معه من قومه بالبخل حيث أنّهم لا ينامون على جوع بل ببطون ممتلئة، في حين أنّ جاراتهم يبتن جوعا دون أن يبالوا بذلك، وفيه إشارة إلى بخل المهجو وعدم اتّصافه بالكرم والجود، وأيضا يتّهمه بعدم حرصه على جيرانه وهو يتنافى مع مبادئ وقوانين القبائل العربيّة القديمة.

ومع مجيء الإسلام تغيّرت "كلّ القيم الجاهليّة التي كانت سائدة بين العرب وانهارت لتحل محلها القيم والمبادئ الإسلاميّة التي نشرها الرّسول صلّى الله عليه وسلم وعززها الخلفاء الراشدون بعده... والإسلام لم يحرم الشعر كله، بل حرّم فقط ما يتنافى مع الرّوح الإسلامية... وكان الشّعراء الذين قد أسلموا يردّون على القريشيين بالشعر فيهجونهم."[4] لقد عمل الإسلام على نشر مبادئ جديدة مخالفة لتلك التي شاعت في العصور السّابقة، فنهى عن السّب والشّتم وتعييب الخلق وانتهاك الحرمات والقول في الهجاء، ولم يبق منه غير ذلك الذي وقع بين المشركين والمسلمين، فالشّعر بجميع أغراضه تأثر بالمعاني والألفاظ القرآنية.

---

[1] الحطيئة: الديوان، ص172.

[2] الأعشى، ميمون بن قيس: الديوان، د ط، شرح: محمد حسين، مكتبة الآداب بالجماميزت، المطبعة النّموذجيّة، د ت، ص149.

[3] المصدر نفسه، ص149.

[4] سراج الدّين محمد: الهجاء في الشعر العربي، ص21.

وكما استغل بني قريش شعرائهم لهجاء الرّسول صلى الله عليه وسلّم وأصحابه معبّرين عن رفضهم للدّين الإسلامي، كذلك وُجد شعراء إسلاميّون ردّوا على هجاء أعدائهم بهجاء آخر يبيّن ظلال هؤلاء وشركهم وبعدهم عن الحق والهدى مفتخرين بانتسابهم إلى الإسلام معتزّين به، ومنهم كعب بن زهير الذي قال في هجاء أخيه بجير:

عَلَى مَذْهَبٍ لَمْ تَلْفُ أُمًّا وَلَا أَبًا عَلَيْهِ وَلَمْ تَعْرِف عَلَيْهِ أَخًا لَكَا[1]

وقال حسان بن ثابت في هجاء أبي جهل:

مَشْؤُومٌ لَعِينٌ كَانَ قِدْمًا مُبْغَّضًا يُبَيِّن فِيه اللُّؤْمَ مَنْ كَانَ يَهْتَدي[2]

وأمّا في العصر الأموي فقد انتشر الهجاء "انتشارا شديدا، والسبب في ذلك أنّ العصر عصر أحزاب، وفتن، عصر تطاحن ديني وسياسي فاضطربت مذاهب الشّعراء واختلفت طرائق القول في الدّفاع عن النزعات واشتعلت نيران العصبيات القبليّة... وكان من الشّعراء من لاتهمهم أحزابهم بقدر ما يهمهم فنهم الشعري"[3]، لقد كانت السّمة الطاغيّة على العصر والمميّزة له بين باقي العصور هي سيطرة الصّراعات السياسيّة بين أصحاب النّفوذ بغية تولّي السّلطة وتسيير مسؤولية الدولة، فكثُرت المذاهب والأحزاب مع تغيّر الآراء، وكان لكلّ اتّجاه شعراء يدافعون عنه عبر نظمهم لأشعار فيها مدح لممثّلي أحزابهم وفخر بانجازاتهم وبصدقهم ومدى نزاهتهم، وقاموا بهجاء مناقضيهم متّهمين إيّاهم بالفساد والظّلم وعدم قدرتهم على إدارة السّلطة وتحمّل مسؤولية العامة، فوقعت حروب كلامية هجائيّة شديدة.

لقد أجزل وتنافس "الشّعراء في هذا الباب، وألحّوا على ذكر المثالب والعيوب، ونبشوا ما حرص الإسلام على دفنه، من إثارة الخصومات، وبعث العداوات وأشهر ضروب

[1] سراج الدّين محمد: الهجاء في الشعر العربي، ص22.

[2] حسان بن ثابت: الديوان، ص93.

[3] محي الدين أبو شقرا: مدخل إلى سوسيولوجيا الأدب العربي، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2005، ص253.

المهاجاة في العصر الأموي المهاجاة بين جرير والفرزدق والأخطل، فقد قذفوا كل عرض، وانتهكوا كل حرمة"[1]. تمكّن الشّعر في الفترة الأمويّة من تحقيق التطوّر والازدهار من حيث الموضوعات والأساليب وشهد تغيّرا فيهما، نظرا لتغير ظروف الحياة وطبيعة الأوضاع المختلفة، فتعدّدت أهدافه وتنوّعت مراميه تبعا للظّروف الجديدة التي أصبحت سائدة فيه.

وهكذا مضى الشّعراء يهجون بعضهم البعض منوعين في موضوعاتهم وأساليبهم، لينال هجاؤهم قبولا لدى جمهور المتلقين ومن بعده يحققون الشهرة، ومن هؤلاء الشّعراء اشتهر كلّ من جرير والفرزدق والأخطل، وقد "احتكما جرير والأخطل إلى الإقذاع في الهجاء ومحاولة السخرية وإضحاك الجماهير، حتى يسقط كلّ منهما قبيلة صاحبه سقوطا لا تقوم من بعده بما يلبسها من الخزي والعار"[2]. وبين هؤلاء الشّعراء الثلاث ظهر نوع فنّي هجائي جديد وهو ما عُرف بفن النّقائض، وفيه يقول الشّاعر أبيات في هجاء شاعر آخر ثم يردّ عليه الثاني بأبيات من نفس الوزن والقافية.

قال الفرزدق في هجاء جرير:

يـــا ابـنَ المَـرَاغَـــةِ، والهِـجـاءُ إذا الْتَقَتْ أَعْـنـاقُـه وتَـمـــاحَـــكَ الخَـــصْـمـــانِ
مـــا ضـــرَّ تَغَلَـبِ وائِـلٍ أَهَـجَوْتَـهـــا، أَمْ بُـلْـــتَ حَـيْـــثُ تَـنـاطَـحَ البَـحـرْانِ
يـــا ابـــنَ المـــراغَـــةِ، إنَّ تَـغْلَـبِ وائـــلٍ رَفَـعوا عَـنـــانـــي فَـــوْقَ كُـــلِّ عـــنـــانِ[3]

وقال جرير يهجو الأخطل:

أرجُـــو لتـــغْلـــبٍ، إذ غَـبَـت أُمُـــورهُـم، ألاَّ يُـبـارِكَ فـي الأَمْـرِ الذي ائْـتَـمَـرُوا
الآكِـلـــونَ خبيِـثَ الـــزّادِ وَحْـــدَهُـــم؛ والنّـــازلـــونَ إذا واراهُـــم الحَـــمَـرُ

[1] محمد عبد المنعم خفاجي: الأدب العربي وتاريخه في العصرين الأموي والعباسي، القسم الأول، د ط، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1990م، ص151.

[2] شوقي ضيف: التطور والتجديد في الشعر الأموي، ص110.

[3] الفرزدق: الديوان، شرح: علي فاعور، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1987م، ص639.

إنَّ الأخَيـطِـلِ خِنْـزيـرٌ أطَـافَ بـــهِ إِحْـــدَى الدَّواهي التـي تُخْشَـى وتُنْتَـظَـرُ[1]

وفي العصر العباسي اختلفت "حال الهجاء عما كانت عليه في العصر الجاهلي والأموي: فالبيئة العباسيّة غير البيئة الأمويّة والحضارة غير الحضارة. والنّزاع القائم غير النّزاع الذي كان موجودا، خصوصا بعد أن ضعفت العصبيّة القبليّة في هذا العصر وحلّت محلّها عصبية قوميّة"[2]، في هذه المرحلة حاول الشّعراء العباسيّين إضافة صبغة جديدة على غرض الهجاء، فلم يعد أساسه العصبيّة القبليّة النّاتجة عن شيوع الفتن، بل صار قائم على النّزاع الفكري والثّقافي بين العرب والشعوبيين، خاصّة بعد أن كثرت المذاهب والعقائد، حيث تجلت أغراضه في السخريّة الشّديدة والتّهكم الموجع.

لقد تغيّر الوضع عمّا كان عليه في العصر الذي قبله، فقد اكتسب الهجاء مسحة فنية إبداعية، وجاء أغلبه في شكل مقطوعات قصيرة ابتعد فيها الشّعراء عن هجاء النّسب والشّتم والسّب، فعنوا فيه ذكر معايب المهجو الشخصية وقد يتجاوزوا ذلك إلى التحقير، وبلغ الأمر إلى حدّ هجاء الخلفاء والحكام والأمراء.[3] كان الهجاء في هذا العصر قد بلغ مرحلة جديدة فأصبح مغاير عمّا كان عليه سابقا، وأضحى الشّعراء يتفننّون فيه بطرق مبتكرة ومختلفة دون أن يطيلوا في نظمه. ومن أشهر شعراء الهجاء العبّاسيين ابن الرومي الذي "هجا الخلفاء والوزراء والقادة والكتّاب والعلماء والشّعراء والمغنّين والمغنيات الذين يسيئون إلى فنهم، بل هجا نفسه كذلك على غرار الحطيئة، كما في قوله:

مَـن كَـان يَـبْكِـي الشَّبَـاب مِـن جَـزعٍ فَـلَـسْـتُ أَبْـكِـي عَلَيْـهِ مِـنْ جَـزَعِ
لأنَّ وَجْـهِـي بِـقُـبْـحِ صُـورَتِـه مَـازَالَ لِـي كَالشَّـيـبِ وَالصَّـلَـع
إذا أَخَـذْتُ المِـرْآة أَسْـلَـفَـنِـي وَجْـهِـي وَمَـا مـتُّ هَـوْلَ مَـطْـلَـعِـي"[4]

[1] جرير: الديوان، د ط، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1986م، ص196.
[2] محي الدين أبو شقرا: مدخل إلى سوسيولوجيا الأدب العربي، ص254.
[3] ينظر: سراج الدين محمد: الهجاء في الشعر العربي، ص ص75 ـ 77.
[4] ركان الصّدفي: ابن الرّومي الشّاعر المجدد، د ط، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، سوريا، 2012م، ص104.

وقال دعبل الخزاعي في هجاءه للرشيد والمأمون والمعتصم والواثق:

خَليفَةٌ ماتَ لَمْ يَحْزَن لَهُ أَحَد وآخَر قامَ لَمْ يَفرَح بِهِ أحد[1]

وفيه أيضا برز نوع من الهجاء "لم تدع إليه عصبيّة، ولم تتره خصومة سياسية؛ وإنما كان مرجعه إلى السّخرية والتّنادر والتّهكم، إزجاء للفراغ وإظهار للبراعة في التقبيح وتوليد المعاني فيه... فلما ضعف الوازع الدّيني، وتوفّرت أسباب الرّاحة واتّسعت أوقات الفراغ، ولان جانب العيش. وجد الشّعراء في هذه السوءات والمثالب والمفاسد، وفي تلك المناظرة الشاذة، والعادات القديمة، مادة واسعة للهجاء."[2] من المعروف أن فترة العباسيّين هي فترة الانفتاح والاطّلاع على مختلف الحضارات والثقافات المجاورة، وهو عهد خروج العرب عن عزلتهم الدّاخليّة وتأثّرهم بمظاهر حياة غيرهم من الأمم، فنتج عن الاحتكاك بالآخرين انتشار مظاهر التّرف والبذخ بشكل ملفت للنّظر بين الخاصة والعامة، مما تسبّب في شيوع اللّهو والمجون والفساد والابتعاد عن الصّفات النّبيلة والخصال الحميدة انطلاقا من مجالس الحكّام وصولا إلى عامّة المجتمع، فهدف الشعراء إلى نقد أحوال الدّولة وأوضاعها الفاسدة عبر الهجاء، بالإضافة إلى استخدام هذا الغرض كوسيلة فنيّة يجد فيها الشاعر فرصة لإظهار براعته في التجديد مع تطوّر الحياة، ويبدي فيه قدرته على صياغة أساليب إبداعيّة جماليّة تمكن من لفت انتباه المتلقي وتأثر فيه.

ومن نماذج الهجاء أيضا ما قاله أبي نواس في ذم بخيل:

رَغِيف سَعِيد عِنْده عدلَ نَفسهِ يقْلِبهُ طَوْرًا وَطَوْرًا يُلَاعِبهُ
وَيُخْرِجُهُ مِن كَمّهِ فَيَشُمُّه وَيُجْلِسهُ في حجرِه ويُخاطِبُه
وإن جَاءَ المِسْكِين يَطْلبُ فَضْلَه فَقَد ثكلته أُمّهُ وأقَارِبه[3]

[1] سراج الدين محمد: الهجاء في الشعر العربي، ص77.

[2] محمد عبد المنعم خفاجي: الأدب العربي وتاريخه في العصرين الأموي والعباسي، القسم الثاني، ص213.

[3] المرجع نفسه، ص214.

4 أوضاع البيئة الأمويّة

اتّسم التّاريخ العربي القديم بتغيّره الدّائم وبتقلّبه المستمر حيث إنّه شهد ظهور عدّة عصور تاريخيّة، أين اهتم دارسين وناقدين كُثر بالبحث فيها وتقسيمها ودراستها انطلاقا من الخصائص والسّمات المسيطرة على كلّ فترة زمنيّة تبعا للجوانب السياسيّة، الاجتماعيّة، الثقافيّة، الفكريّة والأدبيّة، وكلّ عهد من هذه العهود حُدّد زمن تأسيسه وسقوطه بتاريخ معين، وخلال مرحلة تكوّنه ينطبع بجملة من الصفات التي يشترك فيها مع غيره من العصور، وهناك خصائص أخرى ينفرد بها لذاته فيختلف بذلك عن باقي الفترات. والعصر الأموي من أهم العصور العربيّة إذ وقعت فيه أحداث هامة أثرت على حياة العرب بشكل واسع، وانعكست بالدّرجة الأولى على مجال الأدب.

يقصد بالعهد الأموي الفترة التي حكم فيها بني أميّة الخلافة وتزعموا السلطة، وتأسّست الدولة الأمويّة عام 41هـ الموافق لـ:161م، "بعد انتهاء الخلافة الراشدة بمقتل سيّدنا علي بن أبي طالب يوم 17 رمضان عام 40هـ، وتنازل الحسن بن علي رضي الله عنهما لمعاوية بن أبي سفيان يوم 25 ربيع الأول عام41هـ، واستمرت حتى معركة الزاب التي جرت بين جيوش العباسيين وبني أمية حيث هزم مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين عام 132هـ."[1] الموافق لـ:850م حيث امتد حكمها ما يقارب تسعين سنة. إنّ العصر الأموي من أبرز فترات التاريخ العربي الإسلامي، شهد عديد من التغيّرات والتقلبات في حياة العرب على الأخص في الجانب السياسي منها، ولم تعرف الاستقرار فقد بلغ فيها الصراع على الحكم ذروته، مشكّلة هذه التغيّرات منعرج هام في التّاريخ العربي القديم، وكان لذلك كبير الأثر على المجال الأدبي وبالأخص في الشّعر على اعتبار أنه كان الجنس الأدبي الأهم عند العرب.

[1] محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، العصر الأموي، ط7، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2000م، ص53.

1.4 الأوضاع السياسيّة:

لم تكن الأوضاع في العصر الأموي هادئة من الجانب السياسي، فما كان مضمر غير ظاهر في صدر الإسلام من رغبة في امتلاك السّلطة وتولّي الحكم ـ بسبب انشغال العرب بالفتوحات الإسلاميّة والجهاد في سبيل الله ـ أصبح جليّا واضحا في العهد الأموي، فقد "ظهرت أولى بوادر المعارضة بعد وصول عثمان بن عفّان إلى السّلطة وتطوّرت تدريجيّا حتى أفضت إلى مقتله ودخل المسلمون لأوّل مرّة في مواجهات عسكريّة فيما بينهم أدّت إلى انقسامهم"[1]. لم يكن الحال مستقر بل كان ثائر تتضارب فيه الآراء وتتقاتل فيه الأحزاب على الحق في الولاية، فكان الصراع محتدم بينها على الحاكم الأجدر بالخلافة.

قام الخلاف بين "علي ومعاوية وقُتل الإمام فتحرّج الأمر وانشقّت العصا. وانصرف العرب عن جهاد العدو إلى جهاد أنفسهم باللّسان والسّيف. وتفرّقوا أحزابًا وشيّعًا بعضها للدّين وبعضها للدّنيا."[2] لقد اشتدّ الصّراع والنّزاع السياسي في العصر الأموي على تولّي الخلافة، وأيضا وقع خلاف بين أهل المجتمع على الحاكم الأحق بتسيير أمور الدّولة ومن له الفضل الأوّل في الحكم، فانتقل الصّراع من السّادة والأمراء والخلفاء إلى عامّة النّاس متأثّرين في ذلك بالأوضاع السّائدة في عصرهم، وظهرت عدّة أحزاب سياسيّة كنتيجة بارزة لهذا الصّراع، ليتفرّق العرب ويسود بينهم التّوتر وينشغلوا بالنّزاع والقتال فيما بينهم، وقد تمحور هذا النّزاع في مظهرين؛ الأوّل كان عن طريق استعمال قوّة السّلاح في ساحة الحرب بين جيش الجنود وأمّا الثاني فكان بين الشّعراء والأدباء. وقد تمثّلت هذه الأحزاب في الحزب الأموي الحاكم، والحزب الزبيري ، وحزب الشيعة، وحزب الخوارج، وحزب المرتجئة.

---

[1] لطيفة البكاي: حركة الخوارج نشأتها وتطورها إلى نهاية العهد الأموي، ط1، دار الطليعة للطباعة والنصر، بيروت، لبنان، 2001م، ص12.

[2] أحمد حسن الزيات: تاريخ الأدب العربي، ص106.

بالنّسبة للحزب الأموي اعتبره خصومه من الأحزاب المعادية مغتصب للخلافة أخد ما ليس له، والأمويون يرون أنهم هم "أصحاب السّلطة القائمة، وإليهم ينتهي السّواد الأعظم من النّاس، وخلاصة آرائهم أن الخلافة حق لهم مقدّس، وهي مواصلة وتتمّة لخلافة عثمان بن عفّان، والخليفة إمام لابد من إطاعته."[1] لقد كانوا أنصار لمعاوية بن أبي سفيان، ومن خلف من بعده من بني أمية، إذ كان الحكم عندهم ينقل بالوراثة ورأوا أنهم أحق بالسّلطة من غيرهم، فتمسّكوا بها ولم يتنازلوا عنها لغيرهم، وذهبوا إلى أنّ الخلافة ملكٌ لهم ومن نصيبهم ولن تكون لغيرهم من المعارضين والمناقضين.

أمّا الاتّجاه الزّبيري فمثّله عبد الله بن الزبير وأتباعه من أهل الحجاز ومصر، حيث طلب أن تكون الخلافة في يد قدماء الصحابة الذين دخلوا الإسلام مع بدايات الدّعوة إليه، فهم أحق بالحكم من الصحابة الذين دخلوا الإسلام في وقت متأخّر، "فقد رفض عبد الله بن الزبير أن يبايع ليزيد بن معاوية. كان عبد الله بن الزبير يمثل مصالح القرشيون، الذين رأوا أن معاوية والنظام الجديد الذي يمثله لا يخدم مصالحهم. لذلك حاول القرشيون استعادة مكانتهم"[2]. عُدّ بن الزبير من المطالبين بالخلافة غير أنّه لم يفلح في تحقيق أهدافه ولم يتمكّن من أن يصمد طويلا، "قد استمر هذا الحزب نحو ثماني سنوات ولذلك كان أضعف الأحزاب في هذا العصر"[3].

ظهر كذلك حزب آخر عُرف بالحزب الشّيعي والذي اشتُهر بكونه متمسك بعقيدته وبمبادئه وأسسه، ورأى أن الخلافة يتوارثها أهل البيت ولا يتزعمها إلا من كان ينتمي إلى بيت النبي صلّى الله عليه وسلّم، وقد "كانت البذرة الأولى للشيعة الجماعة الذين رأوا بعد وفاة النبي صلّى الله عليه وسلّم أنّ أهل بيته أولى النّاس أن يخلفوه، وأولى أهل البيت العبّاس عم

[1] حنا الفاخوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي القديم، ط1، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1986م، ص317.

[2] بثينة بن حسين: الدولة الأموية ومقوماتها الإيديولوجية والاجتماعية، ط1، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سوسة، تونس، 1997م، ص370.

[3] حنا الفاخوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي القديم، ص319.

النّبي وعلي ابن عمّه، وعلي أولى من العبّاس... والعبّاس نفسه لم ينازع عليّا في أولويته للخلافة."[1] بايع أهل الشّيعة علي كرم الله وجه ليتولى الخلافة، وذهبوا إلى أن المسلمين كافة واجب عليهم مبايعته، فمثّل بذلك كلّ من كان يؤيّد علي، وهو في رأيهم أحقّ بحكم الدّولة وأولى بالإمامة بسبب قرابته من الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، والخلافة ترجع بعد ذلك إلى أولاد علي من بعده ليتم توارثها بين الآباء والأبناء، وقد "اغتيل على يد عبد الرّحمان بن ملجم المرادي، وبعد مقتله بويع ابنه الحسن بالخلافة لكنّه لم يستطع الحفاظ على السلطة فتنازل لمعاوية بن أبي سفيان الذي صار الآن سيّد العالم الإسلامي."[2] لقد جسّد هذا الحزب وجه آخر من أوجه الصّراع والنّزاع السياسي داخل المجتمع الأموي، ونقل مظهر من مظاهر العصبيّة القبليّة، كما أنّه ساهم كغيره من الأحزاب الأخرى في إشعال نار الفتن وشارك في قيام الحروب بين مختلف الأطراف.

وأمّا حزب الخوارج فسميّ بهذا الاسم لأن أنصاره خرجوا عن علي كرّم الله وجهه "بعد موقعة صفّين حينما قبل التّحكيم بينه وبين معاوية بن أبي سفيان لأنّهم كانوا يرفضون مسألة التّحكيم جملة وتفصيلا مردّدين مقولتهم لا حكم إلاّ للّله"[3] فالخلافة هي من حق كلّ مسلم يمتلك الشّروط التي يجب أن تتوفّر في الحاكم، وانقسموا إلى عدة فرق منها: الصّفريّة والنجدات والإباضية والأزارقة وهي أشهر فرق الخوارج، "وقد ثار الخوارج الأزارقة بعد وفاة يزيد بن معاوية وكان زعيمهم الأزرق يدعو إلى البراءة من الأمويّين لأنّهم مشركون... كما ثار الخوارج الصّفرية وهم أنصار عبد الله بن صفّار بقيادة صالح بن مسرح علي الحجاج سنة 76هـ"[4]. والخوارج ليس اسمهم الفعلي بل هو مصطلح اشتهروا به، "فتسمية الخوارج لم يطلقها أهل الحزب على أنفسهم بل أعداؤهم وخصومهم من فعلوا ذلك، أما هم أطلقوا على

[1] أحمد أمين: فجر الإسلام، د ط، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، 2012م، ص287.

[2] رياض عيسى: الحزبيّة السياسيّة منذ قيام الإسلام حتى سقوط الدّولة الأمويّة، ص71.

[3] يوسف محمّد أبكر أحمد ويوسف محمد توتو محمد علي: "خصائص شعر الخوارج"، مجلة جيل الدّراسات الأدبيّة والفكريّة، عدد49، فبراير، 2019م، ص23.

[4] بثينة بن حسين: الدّولة الأمويّة ومقوّماتها الإيديولوجيّة والاجتماعيّة، ص373.

أنفسهم بتسمية الشراة لأنهم باعوا أنفسهم لله تعالى، على أنّ لهم الجنّة.[1] ويستدلون بذلك في قوله تعالى:"إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ المُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُم وأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ" [التوبة111] .

ونتج عن ظهور هذه الأحزاب فرق أخرى كالمرجئة، حيث لم يقف أصحابها إلى جانب أي طرف ولم يدخلوا ما دخله الناس من صراع ونزاع، فهو "حزب سياسي لا يريد أن يغمس يده في الفتن، ولا يريق دماء حزب، ولا يحكم بتخطئة فريق وتصويب آخر، وأنّ السبب في تكوينه هو اختلاف الأحزاب في الرأي، والسبب البعيد هو الخلافة، فلولا الخلافة ما كانت خوارج ولا شيعة، وإذن لا يكون مرجئة."[2] رفض ممثلي هذا الحزب الدخول في الحروب التي وقعت بين المسلمين، وقد بيّن الشاعر ثابت قطنة مبادئها في قصيدة له، وممّا جاء فيها قوله:

يَـا هِنْـدُ فَـاسْتَـمِـعِـي لِـي إِنَّ سِـيـرَتَـنَـا أَنْ نَـعْـبُـدَ الله لَـمْ نُـشْـرِك بِـهِ أَحَـدَا
نُـرْجِـي الأُمُـورَ إِذَا كَـانَـت مـشـبَّـهـة ونَـصْـدُقُ القَـوْلَ فِـيـمَـنْ جَـار أو عَـنَـدَا
المُسْـلِـمُـونَ عَـلَـى الإِسْـلَامِ كُـلُّـهُـمُـو والمُشْـرِكُـونَ اسْـتَـوُوا فِـي دِينِـهِـم قِـدَدَا[3]

وبشكل عام يمكن القول أنّ العصر الأموي يعتبر عصر حافل بالأحداث والوقائع السياسيّة، فلم يعرف هذا الجانب الهدوء والاستقرار لِما غلب عليه من الاضطراب وأيضا عمّته الفوضى بكل جوانبها، حيث إنّ العصبيّة القبليّة التي عرفها العصر الجاهلي عاودت الظهور مرة أخرى وذلك بعد أن خمدت لفترة في عصر صدر الإسلام بفعل تعاليم الدّين الجديد.

[1] عبد الشافي محمد عبد اللطيف: العالم الإسلامي في العصر الأموي، دراسة سياسية، ط1، دار السلام للطّباعة والنشر والتّوزيع والتّرجمة، القاهرة، مصر، 2008م، ص390.

[2] أحمد أمين: فجر الإسلام، ص301.

[3] المرجع نفسه، ص304.

2.4 الأوضاع الاجتماعية:

تميّزت الحياة الاجتماعيّة في العصر الأموي بالتّنوع والتّعدد البشري من خلال دخول عناصر جديدة إليه حيث إنّها ساهمت إلى حدّ معيّن في بناء هذا المجتمع، والأمويون في الغالب لم يحبّذوا الامتزاج والاختلاط بهم، فقد "كان العرب في أثناء هذه الدّولة يترفّعون عن سائر الأمم من الموالي وأهل الذمة، وكان العربي يعدّ نفسه سيّدا على سواه ويعتقد أنه خُلق للسيّادة وذاك لخدمته"[1]، فشكّل كل من الموالي وأهل الذمّة فئتين دخيلتين على المجتمع الأموي، لم يتقبّل العرب فكرة وجودهما بينهم، ذلك لأنهم تميّزوا بالانغلاق على أنفسهم ورفض كلّ ما هو غير عربي.

مثّل الموالي أولائك الذين كانوا عبيدا ثم عُتقوا ليخضعوا لولاء الأشخاص الذين قاموا بعتقهم، تميّزت هذه الفئة بالتّطور المستمر منذ فترة حكم الخليفة معاوية بن أبي سفيان إلى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان، أين كان الولاء محتشم إلى حد ما[2]، والموالي مثّلوا الجزء الكبير في العصر الأموي، وهم المسلمون غير العرب منهم الرقيق والحليف والموالي الفرس، كان لهم مشاركة في الحياة الإدارية، سكنوا الكوفة والبصرة ودمشق والقيروان والمدينة، أجادوا اللغة العربية ودرسوا القرآن الكريم والحديث والتفسير كما أنهم اطّلعوا على مؤلّفات العرب، غير أن الأمويّين قد عرفوا باضطهادهم واحتقراهم لهم بسبب التعصّب لكل ما هو عربي، الأمر الذي جعل الموالي يشعرون بالحقد اتّجاه العرب فتسبّبوا في كثير من الفتن وساهموا في سقوط الدّولة الأمويّة بعد أن ساعدوا العبّاسيين في القضاء عليها.[3] إنّ الموالي شاركوا في تطوير الدولة الأموية من الناحية الثقافيّة والفكريّة والعلميّة حتى أنّ البعض منهم نجح في الوصول إلى المراتب السياسيّة.

---

[1] جرجي زيدان: تاريخ آداب اللّغة العربية، د ط، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، 2012م، ص249.

[2] ينظر: بثينة بن حسين: الدولة الأموية ومقوّماتها الإيديولوجيّة والاجتماعيّة، ص279.

[3] ينظر: صالح طهبوب: موسوعة التاريخ الإسلامي، العصر الأموي، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، عمان، 2009م، ص146.

وأمّا أهل الذّمة فهم من أهل الكتاب المسيحيين واليهود وكذلك أصحاب الديانات الأخرى عاشوا في ظل الدّولة الإسلاميّة. وقد قام عمر بن الخطاب رضي الله عنه بوضع مجموعة من الشّروط كان على أهل الذّمة احترامها، ومنها: ضرورة التزامهم بزي معين يميزهم عن المسلمين، احترام الشّعائر الإسلاميّة وعدم المساس بها، ضيافة المسلمين ثلاثة أيّام من أوسط طعامهم، وعدم معاونة الأعداء ضدّ المسلمين، بالمقابل كان على المسلمين معاملتهم بالحسنى، أما إذا حدث وتجاوز أحد من أهل الذّمة هذه القوانين أو امتنعوا عن دفع الجزية، ينتقض العهد الذي بينهم وبين المسلمين ولا يقوم المسلمين بحمايتهم.[1]

بالرّغم من أن العرب عاشوا لفترة طويلة في نوع من العزلة، دون أن يختلطوا بالعالم الخارجي وما يتضمّنه من أمم أخرى كما أنهم لم يهتموا بإنشاء روابط وعلاقات معهم، إلا أنّ "الإسلام والفتح الإسلامي قد جعلا العرب يحتكّون بأمم غير عربيّة. أحبّ العرب في هذا الاحتكاك الجمال الغريب فتزوج العرب بغير العربيات فنشأ بذلك جيل مُوَلَّد بين العرب وغير العرب. هذا الجيل الجديد كان أكثر إمعانا في اللَّهْو من الجيل العربي الأوّل. ثمّ كثرت الجواري أيضا وشاعت المجالس التي يجتمع فيها النّاس"[2]. حتى وإن لم يرغب المجتمع الأموي بالتّواصل مع العناصر الدّخيلة، وظلّ العربي يرى أنّه هو الأصل وسيد القوم وأما البقيّة فهم ليسوا سوى دخلاء ومتطفّلين فصنفوهم على أنّهم في أدنى المراتب، إلّا أنّه قد تأثر بما جلبته الفرس والروم وغيرهم من الأمم من مظاهر الحضارة الغربيّة، فانتشرت أولى صور هذا التأثر من خلال شيوع مجالس الغناء واللهو، والتي كانت تقام في مناسبات معيّنة وأيضا كان أصحاب المجالس يقيمونها دون أن تكون هناك مناسبة، ولعلّ أبرز ما ميّزها هو حضور الجواري فيها.

[1] ينظر: ثريا حافظ عرفه: الحياة الاقتصادية في بلاد الشام في العصر الأموي، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، السعودية، 1989م، ص ص81 ـ 85.

[2] عمر فرّوخ: تاريخ الأدب العربي القديم من مطلع الجاهليّة إلى سقوط الدّولة الأمويّة، ط4، ج1، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1981م، ص355.

وشملت هذه المجالس "جميع جلسات الشّعر التي كانت تقام عند الولاة والعمال في مختلف المناسبات الاجتماعيّة كالوفاة والمرض مثلا، أو جلسات الشّعر التي كانت تقام بدون مناسبة معيّنة لدوافع اجتماعيّة متعدّدة كالحضور إلى مجالس الولاة والعمّال للإجارة وطلب الشّفاعة، والمنادمة وطلب الحاجة والتكسب المادي"[1]. لقد ضمّت الاجتماعات التي تدور حول الموضوعات الاجتماعيّة عدد من الأصدقاء والأقارب والخطباء والرواة، وقد حرص الشّعراء على الحضور فيها ليلقوا أحسن ما نظموا من الأشعار، بغرض الحصول على الجوائز والمكافآت وأيضا حتى يتمكّنوا من التقرب إلى الخلفاء والحكّام والأمراء وذلك عبر مدحهم والتغني بفضائلهم.

كما تميّزت البيئة الاجتماعيّة بتنوّعها بين ثلاث مناطق وهي الحجاز، العراق، والشام، في الحجاز كان المجتمع الأموي يعيش في ترف لأنّ حكامها أجزلوا عليهم بالخيرات بغرض صرفهم عن أمور السياسة ومنعهم من الخروج إلى أقاليم أخرى، وأمّا في العراق فكثرت الفتن وشاع التوتر؛ حيث كان يسكنها أجناس متعددة وكل جنس يختلف عن الآخر في العادات والتقاليد والأفكار، فأثّر الأمر بشكل سلبي على الحياة الاجتماعيّة، أما الشام فساد الترف فيها لكن بشكل أقل منه في الحجاز، وبالأخص في قصور الحكام والخلفاء الذين كانوا يقيمون في بلاطاتهم مجالس الغناء واللهو، وقد عُدّت الشام مركز هام توافد عليه الناس من مختلف الأقطار.[2] هكذا تنوّعت الحياة العربيّة الأمويّة في المجال الاجتماعي، فكلّ منطقة اتّسمت بطابع خاص جعلها تتميّز عن باقي المناطق، غير أنّ بصمة وميزة التّعصب القبلي والنّزاع وانتشار الفتن ظلّت مسيطر على طبيعة الحياة الاجتماعيّة.

[1] رحيم حلو محمّد: "مجالس الشّعر والغناء عند الولاة والعمال العرب خلال العصر الأموي"، مجلّة ميسان للدراسات الأكاديميّة، عدد15، مجلد8، 2009م، ص111.

[2] ينظر: محمد أبو زهرة: الخطابة، أصولها، تاريخها في أزهر عصورها عند العرب، ط2، دار الفكر العربي، الكويت، 1980م، ص ص293 ـ 296.

3.4 الأوضاع الفكرية والأدبية:

ازدهرت الحياة في عهد الدّولة الأمويّة ازدهارا كبيرا فشملت شتّى الميادين، وقد اعتُبر الدين الإسلامي من أهم أسباب تحقيق النّضج العقلي والثّقافي والفكري، كما كان له الفضل في إخراج عقول العرب من ظلمات الجهل إلى نور المعرفة من خلال دعوته إلى التفكير والتعلّم، بالإضافة إلى أنّ الأمويين عرفوا بلوغ الجوانب العلميّة والمعرفيّة في هذه الفترة من الحكم مرحلة متقدّمة من التطور، "وشملت مجالات العلوم الدينيّة، واللّغويّة، والتاريخيّة والجغرافيّة، والعلوم التطبيقيّة كالفلك والرياضيات وعلوم الطبيعة والفلسفة."[1] لقد شهدت الأوضاع في العصر الأموي تطوّر لعديد من المعارف والأفكار، حيث تعمّق العرب في كثير من الآداب والعلوم وشجعوا على طلب المعرفة، مستفيدين في ذلك من الإطلاع على مختلف الثقافات اليونانيّة والفارسيّة والرومانيّة، ممّا ساهم في تبلور العلوم حتى أنّها وصلت إلى مراحل متقدّمة من النّبوغ، وقد اشتهر علماء كثر برعوا في مختلف الميادين والمجلات الفكريّة خاصّة تلك المرتبطة بالأمور الدينيّة والأدبيّة.

اهتم علماء هذا العصر بدراسة القرآن الكريم؛ فهو المعجزة الإلهيّة الذي لن يتمكّن أيّ بشر من الإتيان بمثله حتى ولو أنهم اتّحدوا جميعا على فعل ذلك، فإنهم لن يفلحوا في تحقيق مرادهم، فأصبح كتاب الله عزّ وجلّ موضع عناية فائقة من قبل الدّارسين سواء كانوا من علماء البلاغة أو الفقه أو النّحو وغيرهم من علماء اللّغة والدّين والتّاريخ، لتشكل هذه الدّراسات "نواة أساسية لكتب الإعجاز التي ظهرت لاحقا، وكثر الكلام في القرآن وتعدّدت التفاسير، فخلّفوا لنا تراثا ضخما، معتمدين على أقوال أهل الكتاب وأضافوا آراءهم واجتهاداتهم."[2] لقد ساهم البحث في القران الكريم في تطوّر البلاغة إلى حدّ كبير عبر

[1] ابراهيم زعرور وعلي أحمد: تاريخ العصر الأموي السياسي والحضاري، منشورات جامعة دمشق، دمشق، سوريا، 1995م /1996م، ص142.

[2] فوزي السيد عبد ربه: المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان والتبيين، د ط، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، 2005م، ص70.

التركيز على الإعجاز البلاغي والبياني وفصاحة اللفظة والجملة القرآنية، فاتّصل هذا العلم الجمالي بالقرآن الكريم اتّصالا وثيقا.

اتّجه الأمويّون أيضا إلى دراسة الحديث الشريف وركزوا في بحوثهم على علوم الفقه والتّفسير، حيث "تأسّست المدارس الدينيّة التي كان أساسها القرآن والحديث والفقه، فكانت بداية التأليف العلمي عند العرب. وكانت مراكز هذه الحركة، المدينة والفسطاط والبصرة والكوفة ودمشق. ومن أشهر علمائها عبد الله بن عمرو بن العاص في الفسطاط... ويزيد بن أبي حبيب... في الفسطاط أيضا"[1]. استطاع أهل العلم والمعرفة في العصر الأموي من التقدم بالفكر العربي القديم والسير به نحو مراتب راقية ومزدهرة، وتمكنوا كذلك من الوصول به إلى مراحل هامّة لم يسبقهم إليها من كانوا قبلهم من العلماء الإسلاميين، ويمكن القول أنّه عبر نشأة هذه المدارس الفقهيّة والدينيّة يتبيّن العناية الفائقة بمختلف العلوم التي لها علاقة بالقرآن الكريم والحديث الشريف، ويرجع الأمر إل أهميّتها البارزة في حياة العرب.

وأمّا في العلوم اللغويّة فقد اشتهر "أبو الأسود الدؤلي"، والذي يعّد واضع لعلم النّحو في العصر الأموي، "وهو أول من أسس العربية، ونهج سبلها، ووضع قياسها، وذلك حين اضطرب كلام العرب، وصار سراة الناس ووجوههم يلحنون، فوضع باب الفاعل، والمفعول به، والمضاف، وحروف النصب والرفع والجر والجزم"[2]. بعد أن اختلط العرب بغيرهم من الأجناس بفعل توسع الفتوحات الإسلامية إلى مختلف الأقطار مع بداية العصر الإسلامي، انتشر اللّحن في اللّغة العربيّة وشاعت كثير من الأخطاء فيها؛ ذلك أن غير العرب لم يتقنوا اللّغة العربيّة ولم يعرفوا مبادئها ولم يجيدوا قواعدها ولا أسس التعامل بها، هذا الأمر دفع علماء اللّغة إلى وضع علوم جديد تحدّد قواعدها وأسسها وتمكّن غير النّاطقين بها وغير المتقنين لها من التعمّق فيها وإجادتها شأنهم في ذلك شأن العرب.

[1] ابراهيم زعرور وعلي أحمد: تاريخ العصر الأموي السياسي والحضاري، ص142.

[2] الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين، ص21.

كما ظهر في هذه الفترة التّاريخيّة اتجاهات ذات طابع فكري، ديني، وفلسفي منها الجبريّة والتي ترى أن الإنسان مجبر لا قدرة له فالأعمال والأفعال قد خلقها الله عزّ وجلّ معه، وأوّل من قال بالفكرة هو جهم بن صفوان. والقدرية جاءت مخالفة للاتّجاه الأوّل وتذهب إلى أن البشر هم مخيّرون لا مجبرون في ممارساتهم، وأمّا المعتزلة فهي الفرقة الأكثر شهرة وانتشارا حيث أنّها تمجّد العقل وتقرّ بقدرته على التّمييز بين القبيح والحسن، والإنسان من منظورها يخلق أفعاله ولذلك فهو إمّا يثاب أو يعاقب.[1] لم يتوقف الفكر العربي الأموي عند الحدود الدينيّة والأدبيّة بل تعدّاها إلى الآراء الفلسفية ومزجها بالدّين، متأثرا في ذلك بالثقافة الخارجيّة.

ومن الجانب الأدبي ركز أدباء ونقاد وكتّاب هذا العصر على ما أُنتج في الفترة الجاهليّة، ذلك لأنّهم "كانوا شديدي الحرص على منزلة العرب كثيري العناية بحفظ الأنساب، وهم الذين جعلوا الإسلام دولة فأيّدوها ونشروا اللغة العربيّة في المملكة الإسلاميّة بنقل الدواوين الروميّة والفارسيّة إلى اللّغة العربيّة"[2]، بالرغم من كثرة الصراعات والنزاعات التي ميّزت الطّابع الأموي وأيضا انتشار الفتن وكثرة العداوات، إلّا أن أهلها لم يُهملوا الأدب والنّقد بل حرصوا على دراسته وتقويمه ونشره، وقد بقي الشّعر عند العرب يسيطر عليه طابع الفخر والهجاء الجاهلي والمنافرات.

يقول الباحث العربي جرجي زيدان: "لم يكن للشّعر تأثير في النّفوس ومنزلة في الدّولة في عصر من عصور العرب مثل ما كان له في العصر الأموي،"[3] ويرجع الأمر إلى توفّر الدّواعي والأسباب التي مكّنت من بلوغه مكانة مرتفعة في حياة العرب خلال هذه الفترة، فهو المعبّر عن آمال المجتمعات وعن طموحهم ومواقفهم، وأيضا هو الوسيلة النّاقلة لآراء الاتّجاهات السياسيّة والمجسّد لأفكارها ومبادئها، وبه يفخر أهل كل فئة بانجازاتهم ومآثرهم

[1] ابراهيم زعرور وعلي أحمد: تاريخ العصر الأموي السياسي والحضاري، ص148.

[2] جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، ص254.

[3] المرجع نفسه، ص282.

ومكانتهم العظيمة بين الأمم الأخرى، وعبره يهجون من هم أعداء لهم ويحطّوا من قيمتهم، وكلّ هذا دعا إليه ما يعرف بالتعصّب القبلي، وكان أيضا من عوامل تطّور الشّعر تشجيع الخلفاء على نظمه، فعُرفوا "بفتح صدورهم للشّعراء يستمتعون لإنشادهم ويطلبون المزيد من قصائد المدح، ويشعلون نار التنافس بينهم... ثم يفاضلون بينهم ويأمرون لمن أجاد منهم بالجوائز والعطايا"[1]. للشّعر قدرة على تحريك النّفوس والعواطف، كما أنّه يمكّن المبدع من الدخول إلى أعماق الذّات الإنسانيّة العامّة أو الخاصّة، سعى الخلفاء من جهة إلى استخدامه كأداة ليصرفوا بها المجتمع الأموي عن الاهتمام بظروف الحياة السياسيّة لدولتهم ويشغلوهم بالشّعر باعتبارها وسيلة ترفيهيّة، ومن جهة أخرى استخدموه كسلاح تبادل إطلاقه الأطراف المتخاصمة والأعداء. نضم الشّعراء الأمويون مقطوعاتهم وقصائدهم على نمط الأغراض الشّعريّة التي كانت شائعة آنذاك من: مدح ورثاء وهجاء وفخر وغزل ووصف، بالإضافة إلى ذلك برز الشعّر السياسي بشكل ملفت للنّظر وأيضا عرف ولادة نوع شعري جديد أطلق عليه مصطلح "شعر النّقائض".

ولعلّ ما ميّز الشّعر الأموي . كما سبق الإشارة إليه . هو نشأة فن جديد والذي عرف باسم النّقائض، وفيها يُلقي الشّاعر قصيدة أين يفخر بنفسه وبنسبه وأصله ويذكر أيضا مآثر قومه وشجاعتهم وانجازاتهم العظيمة، ويصاحب هذا الفخر هجاء مقذع للطرف الثّاني فيه مختلف أساليب الشتم والسب والتّذكير بعيوبه وبمثالب ومخازي وضعف قومه، ثم يردّ عليه الشّاعر الثّاني بقصيدة أخرى تكون من نفس الوزن والقافية والروي، وعبر النّقائض الشعريّة تجلت بصورة واضحة قدرة الشّاعر الأموي على الارتجال في قول الشعر وعلى نظمه، اشتهر في قوله على الأخص ثلاث شعراء وهم الفرزدق وجرير والأخطل، وعُرف هؤلاء الشّعراء الثلاثة بكثرة النّقائض المتبادلة فيما بينهم، فيها أنواع وأشكال كثيرة من السّب والشّتم، وقد انطوت على الهجاء المقذع واللّاذع لبعضهم البعض.

[1] فوزي السيد عبد ربه: المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان والتبيين، ص72.

وأمّا في ميدان النثر فقد عرف العرب الأمويّون توسعا في الفنون النثريّة وشهدوا تنوّعا في أغراضها وذلك للحاجة إليها في تسيير أمور الدولة، ومن بين هذه الفنون يوجد فن الخطابة حيث "خطت الخطابة خطوات واسعة، وازدهرت ازدهارا ملحوظا وكان خطباء كل فرقة يحرصون على أن يعبروا عن فلسفتهم ومبادئهم ببيان ساحر يجدب إليه قلوب السامعين ويستميلهم إلى رأيه وعقيدته"[1]، لقد اختلفت موضوعات الخطابة وتعددت غاياتها ومشاربها، فكما كان لكلّ حزب شعراء يدافعون عنه كذلك كان لهم خطباء حرصوا في خطبهم على تنزيه فرقهم والدّفاع عنها، ولهذا النثر الفني أنواع متعددة منها الخطبة السياسيّة والتي تدور موضوعاتها حول الخلافة ومن هو الحزب الأحق بتولي الحكم، ومن أشهر خطبائها الحجاج بن يوسف الثقفي وزياد بن أبيه وعمران بن حطان، وتوجد أيضا الخطبة الحربية وفيها تحريض على القتال والحث على الجهاد وتشجيع المقاتلين وتحفيزهم ورفع هممهم لتحقيق النّصر وهزيمة الأعداء، من أبرز من مثّلها في العصر الأموي الإمام علي رضي الله عنه، وهناك أيضا الخطبة المرتبطة بالمناسبات الدينيّة كخطبة العيدين وفيها يركّز الخطيب على اللغة المؤثرة التي تهز نفوس المستمعين.

لقد نمت الكتابة في العصر الأموي نموا كبيرا وارتقت رقيا عظيما، حيث اعتمد الكتّاب على التراث الأدبي والنقدي الموجود في العصر الجاهلي، وأيضا عادوا إلى المؤلّفات التي دونت في العصر الإسلامي دون أن يغفلوا الإطلاع على الثقافات الأجنبيّة والنهل منها، فتحدثوا عن قصص الأنبياء والرسل وعن سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وتطرقوا إلى تاريخ الأمم والملوك السابقين، كما شاع الترسل "فكان الفن الذي استجدّ في العصر الأموي، أو الفن الذي أصبحت له، في ذلك العصر، حدوده وشروطه الثابتة وخصائصه المميّزة على الأقّل"[2]. بذلك تنوّعت المصادر التي نهل منها الأدباء والعلماء وتنوّع معها أدبهم وعلومهم .

[1] محمد عبد المنعم خفاجي: الأدب العربي و تاريخه في العصرين الأموي والعباسي، القسم الأول، ص153.

[2] عمر فرّوخ: تاريخ الأدب العربي القديم من مطلع الجاهليّة إلى سقوط الدّولة الأمويّة، ص360.

5 أثر الأوضاع الأمويّة في تطوّر غرض الهجاء:

يعدّ الأدب من بين الفنون التي تعكس مظاهر الحياة الاجتماعيّة والثقافية والسياسيّة وتعبّر أيضا عن الخلفيات الفكريّة للشعوب ومستويات تفكيرها، ومن الطبيعي أن يتأثّر الأدب على تنوّع أقسامه بالطّبيعة المحيطة بيه وبالأوضاع المسيطرة على مجتمعه، كذلك الأمر بالنّسبة لفنّ الهجاء والذي يعدّ من أهم الفنون التي نالت رواجا كبيرا في عصر بني أميّة، وقد بلغ أوجّه خلال هذه المرحلة وذلك بفضل توفر الدّواعي والأسباب التي فتحت له السّبيل أمام الازدهار والتطوّر ومكّنته كذلك من الانتشار والتوسع على غرار الأغراض الأخرى، فأغلب الصور والأساليب التي أوردها الشّعراء في هجائهم مستمدّة من البيئة المحيطة بهم، كما أنّ الموضوعات التي تطرقوا إلى ذكرها لا تخرج عن حدود القضايا التي شغلت الرأي العام والخاص في تلك الفترة.

وجد الشّعراء في العصر الأموي بيئة مناسبة ليُظهروا مهارتهم وقدرتهم على القول في الهجاء، حيث كثرت الدّوافع التي شجّعت بصورة كبيرة على النّظم فيه، والشّاعر يعتبر بمثابة لسان قومه والممثل الذي يدافع عنهم ضد أعدائهم، ولم يتوقف عند هذا الحد بل تجاوز الأمر إلى نقد الأنظمة الفاسدة داخل مجتمعه وعمل على فضحها عبر هجائه لها، وهذا يرجع إلى ما يمتلكه من قدرة على تأليف الشعر والتأثير في المتلقين وعلى الأخص في الخصوم والإنزال من قيمتهم، وقد "توسّع الهجاء في العصر الأموي بفعل المعطيات الجديدة التي ظهرت في حياة الأمّة، فكان من مظاهر ذلك هجاء الولاة والقادة وعمال الخراج وغيرهم ممن يمثلون الدّولة وذلك على خلفيات اتهامهم بالفساد أو الظلم أو الاختلاس أو نحو ذلك"[1]، لقد سعى الشعراء إلى الكشف عن الفساد المنتشر داخل المجتمع الأموي، حيث قام بعضهم بهجاء الحكام دون خوف منهم وأبرزوا عيوبهم ومآخذهم.

[1] عبد العزيز بن محمد الخويطر: الهجاء من الجاهلية حتى نهاية العصر الأموي، نظرة في طبيعة الفن وتراوحه بين القبلية والإسلام والسياسة، كلية اللغة العربية، قسم الأدب، 1431هـ، ص205.

وأمّا الدّافع الأول الذي راج بفضله غرض الهجاء وساهم بصورة أقوى في شيوعه قد رجع إلى "احتياج ولّاة الأمر إليه بسبب الانقسام الذي قام بين الأحزاب المختلفة وهو الهجاء السياسي، وكان أكثر الشّعراء يأخذون بناصر الأمويين لأنهم أهل السيادة، وكان خلفاؤهم يبذلون الأموال للشعراء ليستعينوا بألسنتهم على أعدائهم، لتأثير الهجاء في نفوس العرب لشدّة إحساسها ونخوة أهلها"[1]. لقد ساعدت عديد من الظّروف التي خلقتها البيئة الأمويّة في توسّع فنّ الهجاء، فكان الصّراع السياسي بين الأحزاب والمذاهب من الخوارج والشيعة وبني أميّة وغيرها من الاتجاهات العامل الأهم والأبرز المساعد في انتشاره؛ حيث حرص كل حزب على أن يكون له عدد من الشّعراء يدافعون عنه في أشعارهم ويفخروا بما حققه أهله من أعمال عظيمة، ويقوموا أيضا بتقديم صورة مثالية له أمام الملأ، فيكسب بذلك فئة أكبر من المؤيدين له، وبالمقابل فإنّهم يرمون بسهام أشعارهم نحو خصومهم ويهجون أعداءهم بهجاء مقذع فيه إحصاء للعيوب والمساوئ، ويجرّدونهم من كل فضيلة. ولمّا كان الهجاء قائم على خاصيّة التّعصب القبلي فإنّه انطبع بالطّابع الجاهلي وعكس ما كان عليه الحال في البيئة الجاهليّة، بالإضافة إلى أنّه تأثرّ بالألفاظ والمعاني الإسلاميّة.

والشعر الهجائي هو"سلاح من أقوى الأسلحة التي يواجه بها كل فريق خصمه، فهم يدركون أنّ فنّ القول والتأثير على القلوب من أهم ما يعلنون به عن مبادئهم وأهدافهم التي تعدّدت وكثرت في هذا العصر"[2]. للشّعر قدرة عجيبة على التّأثير في النّاس، فكلّما كان الشّاعر مجيد ومبدع كلّما كان له الحظ الأكبر في المساس بنفوس المتلقين عبر ما يلقيه من شعر، ومتى يتحقق هذا فإنه يتمكن من إقناعهم بأفكاره وبتبني آرائه، وقد عرفت الحياة العربيّة الأدبيّة منذ بداية العصر الجاهلي سيطرة الشّعر على حساب الأجناس الأخرى، فهو الوسيلة الأمثل للتّعبير عن الأفكار والآراء، وأيضا هو أداة لفت انتباه المتلقّين نحو واقع معين أو قضيّة ما يدافع فيها الشّاعر عن اتّجاهه وينقص من قيمة أعدائه.

[1] جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، ص290.

[2] فوزي السيد عبد ربه: المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان والتبيين، ص74.

وفي الوقت ذاته هدف الخلفاء الأمويّين إلى إبعاد النّاس عن أمور السياسة وصرف نظرهم عن الصّراع الذي كان يسيطر على أوضاع الدّولة وعملوا جاهدين على إشغالهم بأمور أخرى، فشاع الهجاء كأداة تسلية وترفيه بين العامّة وأصبح بمثابة مناظرة، فكلّ شاعر كان يسعى إلى الحط من قدر ومنزلة الثاني ويعمل على اظهار مقدرته على القول، "ولقد أفحش الشّعراء في هذا الباب، وألحّوا على ذكر المثالب والعيوب ونبشوا ما حرص الإسلام على دفنه، من إثارة الخصومات، وبعث العداوات وأشهر ضروب المهاجاة في العصر الأموي المهاجاة بين جرير والفرزدق والأخطل، فقد قذفوا كل عرض، وانتهكوا كل حرمة،"[1] يعدّ الصّراع بين الشّعراء العامل الذي ولّد ما يعرف بفنّ النّقائض، والذي كان وسيلة لإبعاد الملل وملئ أوقات الفراغ والترويح عن النّفس من خلال الصّور السّاخرة التي يرسمها هؤلاء الشعراء لبعضهم البعض.

مع ظهور الإسلام طرأت تغيرات جذريّة في الحياة العربيّة حيث أصبحت تعاليمه ومعانيه مصدر هام لفن الهجاء، "إذ كان الشعراء يهجون خصومهم بالبعد عن الدين، وبالانحراف عن مبادئه القويمة"[2]، فقد عمد هؤلاء إلى الاقتباس من القرآن الكريم بما يتوافق مع موضوعهم، حتى يكفروا خصومهم ويتهموهم بالتفريط في الدين، ومن مثاله هجاء جرير لآل مهلب:

آل المَهْلَـــب فَـــرَّطُـــوا فِـــــي دِيـــنِـــهِم وطَـغُـــوا كَمَـــا فَـعَـلَـت ثَـمُـــود فَبَـــاروا[3]

وقال الفرزدق في هجاء جرير:

وكَـــانَ جَـــرِيـــــر عَلَـــــى قَـــوْمِـــــه كبكـــر ثَـــمُـــودٍ لَـــهَـــا الأنْـــكَـــــدِ[4]

[1] عبد المنعم خفاجي: الأدب العربي وتاريخه في العصرين الأموي والعباسي، القسم الأول، ص151.

[2] سامي مكي العاني: الإسلام والشّعر، عالم المعرفة، الكويت، 1996، ص122.

[3] المرجع نفسه، ص122.

[4] الفرزدق: الديوان، ص158.

لا تخفى قصة قوم ثمود مع النبي صالح عليه السلام الذين لحق بهم العذاب والعقاب بعد ما فعلوه بناقة صالح عليه السلام، والفرزدق في هذا البيت يؤمن بأن جرير سوف يُلحق العذاب بقومه كما فعل عاقر النّاقة بقوم ثمود.

وفي علاقة الدين بتطوير الشعر يقول الناقد شوقي ضيف: "ومعنى ذلك أنّ الحياة الدينيّة طوّرت الشعر الأموي وأثّرت أثرا عميقا في نفوس الشعراء، وأصبح من غير الممكن أن ينظموا شعرا لا تتضح فيه عناصر هذه الحياة، ومن أهم ما كان من ذلك أنهم أصبحوا لا يمدحون أحدا ولا يهجون أحدا إلا وضعوا الصفات الدينيّة إيجابا وسلبا في مديحهم وهجائهم."[1] أصبح الدين الإسلامي مصدر أساسي يستنبط منه شاعر الهجاء أفكاره ومعانيه، حيث صارت جلّ الأشعار فيها إشارات دينيّة كاتهام الأعداء بالنفاق في الإسلام وتصويرهم على أنهم غير ملتزمين بقواعده، ويسعى بالمقابل الشّاعر أن يثبت قوة علاقته بالله تعالى.

فمن بين ما قاله الفرزدق في هجاء إبليس:

أَلَمْ تَرَنِي عَاهَدْتُ رَبِّي، وَإِنَّنِي ... لَبَيْنَ رِتَاجٍ قَائِمٌ وَمَقَامِ
عَلَى قَسَمٍ لا أَشْتُمُ الدَّهْرَ مُسْلِمًا ... ولا خَارِجًا مِا فِيَّ سُوءُ كَلامِ
أَلَمْ تَرَنِي والشِّعْرُ أَصْبَحَ بَيْنَنَا ... دُروءٌ مِن الإِسْلامِ ذاتُ حُوَامِ[2]

ساهمت الحياة الأمويّة بشكل فعّال في تطوّر غرض الهجاء، وقد اختلف طرق النظم فيه وأساليبه وموضوعاته باختلاف أوضاعها وظروفها، ولعل أبرز ما ساهم في ازدهار هذا الفن هو ذلك النّزاع الذي وقع بين الاتجاهات والمذاهب الفكريّة والدينيّة وبالأخص السياسيّة منها، فكان للحياة السياسيّة الفضل الأول والكبير في تميّز هجاء العصر الأموي.

[1] شوقي ضيف: التطور والتجديد في الشعر الأموي، ص64.
[2] الفرزدق: الديوان، ص539.

الفصـل الثّانـي:

موضوعـات وأسـاليب هجـاء الطّرمّـاح

1 تعريف مصطلح الموضوع

2 موضوعات هجاء الطّرمّاح

3 تعريف مصطلح الأسلوب

4 أساليب هجاء الطّرمّاح

شكل الجانب النّظري من بحث في الهجاء والاطّلاع على العصر الأموي، وتفصيل الحديث عنهما أسس معرفية وأرضيّة فكريّة لموضوع الدّراسة، لما فيه من تعريفات تمهّد للموضوع وعناصر تساعد على سهولة إدراكه، ولا يَخْفَى أن كلّ شاعر هجّاء تناول في شعر هجائه مجالات متنوعة، عبّرت عن تجربته الشعوريّة وواقعه المعيش بأسلوب متميز وبطريقة مختلفة عن باقي الشّعراء، وقد يحدث أن يشترك معهم في بعض الخصائص. والشّاعر الأموي الطّرمّاح بن حكيم من فحول الشّعراء الأمويّين، قد عالج في شعر هجائه جملة من الموضوعات المتكرّرة، بأسلوب فني إبداعي استخدم فيه مختلف الوسائل الجماليّة، ليتمكّن بفضل نظمه وبفعل تفوقه في غرض الهجاء من أن ينال شهرة واسعة واهتمام بارز من طرف النّقاد والدّارسين.

1 تعريف مصطلح الموضوع:

الموضوع عبارة عن مصدر مأخوذ من الفعل الثلاثي "وَضَعَ"، وبالعودة إلى المعاجم اللغويّة ومنها أساس البلاغة للزمخشري نجد أنه قد ورد قوله: "وضَعَ الشَّيْء مَوْضَعَه ومواضِعَه. والخيّاط يُوَضِّعُ القطنَ على الثّوب توضيعًا. ومن المجاز: وضَعه الشُّحُّ ودناءة النّسب. ووضَع منه: غضّ عنه. وتكلّمتُ بموضوع الكلام ومخفوضه."[1] فهو هنا يشير في معنى المفردة إلى المكان بصفة عامّة.

إنّ الأصل اللغوي لكلمة الموضوع أي لفظة وضع في التعريف اللّغوي لها معاني متعدّدة، حيث أنّها قد تدلّ على وضع وترك الأشياء في أماكنها، أو أنّها تشير إلى مكان معيّن معلوم وغيرها من المعاني الأخرى.

[1] الزمخشري، أبو القاسم جر الله محمود بن عمر بن أحمد: أساس البلاغة، تح: محمّد باسل عيون السود، ط1، ج2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1998م، ص341.

أمّا الموضوع في الكلام فهو: "المادّة التي يجري عليها البحث شفويّا أو خطيّا، ومن ذلك قولنا موضوع الرّواية، موضوع النقاش، موضوع المحاضرة"[1]. يَنتُج ويتشّكل أساس الموضوع عبر فكرة واحدة أو جملة من الأفكار، حيث يولّدها ويعالجها الإنسان في مختلف المجالات والزوايا، فقد تكون علميّة أو أدبيّة أو دينيّة أو مذهبيّة أو فلسفيّة أو اجتماعيّة أو سياسيّة... وعبر هذه الموضوعات تنشأ عديد من الموضوعات الأخرى، فهي تشمل جميع نواحي الحياة الإنسانيّة، بها يستطيع الفرد من اكتساب المعارف والثقافات، ويتمكن من بلوغ درجة علميّة ومعرفيّة تسمح له من فهم ما يدور حوله من أحداث ووقائع على اختلاف مجال تناولها.

وعرّف محمد التونجي الموضوع في الجانب الأدبي بقوله: "هو الفكرة العامّة التي يبنى عليها العمل الأدبي، وهو ينطلق من الذّات، أو من المحيط، وتدخله العاطفة وجزئيّات لابدّ منها لكمال الفكرة. ولكلّ عمل أدبي موضوع؛ فموضوع شعر بن أبي ربيعة هو الغزل، وموضوع قصص المنفلوطي اجتماعي،"[2] فموضوعات الأدب تنبع من تجربة المبدع الخاصّة حيث أنّها تعبّر عن ذاتيته وأيضا تنقل مشاعره وعواطفه، وذلك خلال وقوفه أو مروره بتجارب في حياته، أو أنّها قد تدور حول الواقع والأحوال المتواجدة في مجتمعه وما يعيشه أهله سواء كانت إيجابية أو سلبية، وهي كثيرة لا يمكن حصرها، كما أنّها تتسم بكونها غير ثابتة فهي دائمة التّغير سواء لدى الأديب الواحد أو بين مجموع من الأدباء.

[1] جبّور عبد النّور: المعجم الأدبي، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1979م، ص272.

[2] محمد التونجي: المعجم المفصل في الأدب، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1999م، ص841.

2 موضوعات الهجاء عند الطّرمّاح:

نشأ الطّرمّاح خلال فترة تاريخيّة اتسمت ببلوغ الصراع فيها أوجّه، وكان من الطبيعي أن يتأثّر بهذه الحياة، فالبيئة بمختلف جوانبها تُعتبر مصدرا لوحي الشّاعر ومنبعا لإبداعه، فكان شعر الطّرمّاح مستمد من واقع هذه البيئة وما تحتويه من قوانين وأسس وما تنطوي عليه من قيم ومُثل، أين جعل قوله أداة للدّفاع عن مذهبه السياسي والديني والفكري. وقد اعتُبر الهجاء أروع ما في نظمه، فقيل:" إذا ركب الطّرمّاح الهجاء فكأنّما يوحى إليه."[1]

وقيل أهجى بيت قول الطّرمّاح:

تَمِيمٌ بِطُرُقِ اللُّؤمِ أهدى مِنَ القَطَا وَلَوْ سَلَكَتْ طُرُق المَكارِم ضَلَّت[2]

برع الشّاعر في تصوير بني تميم وما يتّسم أهلها من لؤم؛ فهم عرفوا كل طرق هذه الصّفة السيّئة وحفظوها عن ظهر قلب، حتّى أنّ علمهم بها تجاوز معرفتهم بطرق الصّحراء الصّعبة، ولو أنها سلكت طرق المكارم والفضائل لظلت وتاهت فيها ولم تعرف اتجاهاتها. لقد تناول الطّرمّاح في هجائه عدد من المواضيع الأخلاقيّة والدينيّة والسياسيّة، فنجده في بعض الأحيان يتطرّق إلى الحديث عن ضعف أعدائه وجبنهم، وأحيانا أخرى يتحدّث عن الذلّ الذي يعيشون فيه، أو يتّهمهم بالكفر وبضعف الإيمان.

والفخر لازم هجاءه في غالبيّة الأحيان وارتبط به ارتباطا وثيقا، حيث ابرز فيه مجد طيّءٍ وتعصّب لها، فكان هجاؤه إما قبلي خصّ به عدد من قبائل العرب المعادية لقبيلته وللقحطانيين عامة، أين نالت قبيلة تميم النّصيب الأوفر من الهجاء، أو أنّه كان فردي هجا فيه مجموع من الشعراء وعلى الأخص شاعر تميم "الفرزدق"، غير أنّ هذا الأخير لم يعره الاهتمام الكبير ـ كما فعل الطّرمّاح ـ إذ أنّه كان منشغل بنقائضه مع جرير والأخطل.

[1] الطّرمّاح: الديوان، ص29.

[2] المصدر نفسه، ص74.

1.2 الهجاء الأخلاقي:

عبر التأمُّل في مقاطع هجاء الطّرمّاح يتبيّن أنّها في أغلبها كانت موجّهة لقبيلة تميم وما يتفرّع عنها من قبائل أخرى، فقد أصبحت محطّ اهتمام الشّاعر ومحور يرتكز عليه هجاؤه، حيث أنّه عند هجائه لها تنهال عليه الأفكار والمعاني، وفي كلّ موقف يتولّد معه كان يختار صفة شنيعة لها تُفصح عن مراده، فتحدّث عن معاني اللّؤم والجبن والضّعف وقلّة العدد، حيث قال عنها:

ضَجَّتْ تَمِيمٌ، وأَخْزَتْهَا مَنَالِبُهَا، يَنْقُلْنَ مِنْ بَلَدٍ إلى بَلَدِ
وَالقَيْنُ لَمْ يَبْقَ مِنْهُ عِنْدَ كَبْرَتِه إلّا كَمَا أَبْقتِ الأيّام مِن لُبَدِ
أَبْقَيْنَ مِنْهُ ..... وَسْطَ مَحْبَرَةٍ يَكْبُو، وَتَرْفَعُهُ الوِلْدَانُ بالعَمَدِ
لاَ عِزَّ نَصْرُ امرئٍ أَضْحى لَهُ فَرَسٌ على تَمِيمٍ يُرِيدُ النَّصرَ مِنْ أَحَدِ[1]

أصبحت عيوب قبيلة تميم معروفة وشائعة بين جميع معاصريها، فقد تداولتها ألسنة الشّعراء وشاعت مساوئها بين عامّة النّاس، ممّا ألحق بها العار والخزي، وبلغ ضعفها إلى درجة أنّ إنسان بمفرده يستطيع أن يحمل سلاحه ويواجه هذه القبيلة بأكملها، ويتمكّن من أن يحقّق النّصر عليها دون أن يستعين بأيّ طرف مساعد له. استطاع الشاعر التعبير عن صفة الجبن تعبيرا قويّا ومؤثّرا، فأصبحت بمثابة واقع فعلي وحقيقة مطلقة في أعدائه، وتمكّن عبرها من إلحاق الخزي ببني تميم.

وأكّد على صفة أخرى في القبيلة ذاتها حين قال:

لا تَأْمَنَنَّ تَمِيمِيًّا عَلى جَسَدٍ قَدْ ماتَ مَا لَمْ تَزَايَلْ أَعْظمُ الجَسَدِ
لاَ يَحْسَبِ القَيْنُ أنَّ العابَ يَغْسِلُهُ عَنْ قَوْمِهِ مَعْجُهُ بالزّورِ والفَنَدِ[2]

[1] الطّرمّاح: الديوان، ص123. لبد هو اسم آخر نسور لقمان، المحبرة: من الحَبَر ويقصد به الأثر من الضرب والجرح.
[2] المصدر نفسه، ص124. القين: الذي يشتغل بالحدادة ويقصد به الفرزدق.

لم يهمل الطّرمّاح أدق التفاصيل عندما هجا التميميّين، حيث رأى أنّ الجسد الذي فقد روحه وأضحى ميّتا لم يسلم من أذى بني تميم، فلا يمكن أن يُؤتمن على جثث الموتى عندهم إلّا بعد أن تضمحلّ ولا يبقى منها غير العظام، وفي الأغلب الشّاعر هنا يتّهم القبيلة بأكل لحوم الموتى أو باستغلال أعضائهم في أعمال دنيئة وممارسات فاسدة كالسّحر مثلا، أمّا الكذب الذي كان يصدر عن شاعر تميم الأول "الفرزدق" في ادّعائه الدّائم بأنّ لقومه مآثر عظيمة وأعمال مجيدة، هو لن يغيّر من واقعها المخزي والمشين شيئا ولن يمسح بكذبه هذا عيوبها ومساوئها.

وكذلك قال عنها:

وَدَانَـــتْ تَميـــــمٌ لِلْعَتِيـــكِ، وَأَسْلَمَـــتْ تَميـــــمٌ، وأَوْدى خَطْرُهَـــا وزَئِيرُهَـــا
فَتَلْقَـــى تَمِيمًـــا، شَيْخَهَـــا عِنْـــدَ بَابـــهِ ذلِيـــلًا، ويُغْـــذى بالهَـــوَانِ صَغِيرُهَـــا[1]

إنّ العجوز أو الشّيخ الكبير في السّن غالبا ما يكون رجل حكمة، وذلك بعد أن عاش كثير من التجارب في حياته منحته خبرة، وأيضا يصبح أهل للوقار والاحترام، غير أنه في قبيلة تميم قد غدا ذليلا لا كرامة ولا احترام له، وهو نفس حال الصّبي الصغير الذي يعيش بينهم، حيث ينشأ على ما نشأ عليه آباؤه وأجداده من الذل والحقارة والموضع الدّنيء، فقد ورث عنهم الضعف والجبن وكلّ السمات السيّئة.

كما تعلق هجاء الشّاعر بالطّعن في النّسب والأصل، فقال هاجيا الفرزدق ومشكّكا في نسبه:

أَوْ كَانَ فـــي غالِـــبٍ شِـــعْرٌ فَيُشْبِهَـــهُ شِـــعْرُ ابْنِـــهِ، فَيَنـالُ الشِّعْرَ مـن صَدَدِ؟
جـــاءَتْ بِـــهِ نُطْفَـةً من شَرِّ ماءٍ صَرًى سِيقَتْ إلى شَـــرِّ وادٍ شُـــقَّ فـــي بَلَـــدِ[2]

[1] الطّرمّاح: الديوان، ص166. العتيك: من قبائل الأزد.

[2] المصدر نفسه، ص127. الصدد: القرب، الصرى: الماء الذي طال استنقاعه.

يعدّ المساس بالنّسب من أهم الموضوعات التي اعتمدها الشّعراء ليمنحوا شعرهم تأثيرا أكثر ومصداقيّة أعمق، ومنهم الطّرمّاح الذي هجا الفرزدق بنسبه غير المعروف والمجهول، وقبل أن يتطرق إلى هذا الموضوع ازدرى شعر الفرزدق وشعر والده. لقد تحدث الشّاعر عن صفات ومعاني الجبن والخوف والضّعف وغيرها من الصفات السلبيّة وجعلها لصيقة بأعدائه، وبالأخص قبيلة تميم التي كانت تشكّل الخطر الأكبر والعدو الأوّل لقبيلة طيّء.

كما كان الشّاعر يهجو ليدفع عن قومه الهوان ويلحقه بخصوم قبيلته، فامتزج هذا الغرض بالفخر، من ذلك قوله في ردّه على الفرزدق:

وإِنْ تَهْجُ عُلْيَا طَيّءٍ تَلقَ طَيِّئًا إِلَيْهَا تَنَاهَى نَعْتُ كُلِّ كَرِيمِ
بِهِم مَثَلُ النَّاسِ الّذي تَعْرِفونَهُ وأَهْلِ الوَفا من حَادِثٍ وقَدِيمِ
وأَنْتَ على الجيرَانِ قُنْفُذُ تَلْعَةٍ أَزومٌ على السَّوءاتِ وابنُ أزومِ
إذا خاف وارى أَنْفَهُ مِنْ عَدُوِّهِ وإِنْ لَمْ يُخِفْهُ باتَ غَيْرَ نؤومِ[1]

سعى الطّرمّاح إلى الفخر بقبيلته طيّء، فوصف أهلها بالكرم والوفاء ومدحها بمكارم أخلاق ناسها وبمحامد صفاتهم وبعظيم فعالهم، وهي وإن تعرّضت للهجاء تبقى الأرفع مرتبة والأعلى مكانة والأكثر احتراما، على خلاف تميم التي تقبع في أذل المراتب وأهلها هم أعر وأسوء الناس ومنهم الفرزدق، فهو كالقنفذ الذي يجلس في أعلى الهضبة، متى يشعر بالخوف يختفي في جحره، فلا يُرى له أثر إلى أن يندثر الخطر.

لقد كان دمج قضايا القبائل وشعرائها في الشّعر القديم أحد أبرز موضوعات الهجاء القبلي، رجع مصدره إلى العصبية للانتماء المذهبي أو المكاني، وكلّ ذلك فرضته الطبيعة وعلى الأخص الأمويّة منها، والطّرمّاح لم يكتف بهجاء تميم بل تجاوزها إلى قبائل أخرى كقبيلة يشكر وأسد وضبّة...

[1] الطّرمّاح: الديوان، ص257. تلعة: مسيل الماء من أعالي الوديان والجبال إلى بطون الأرض، أزوم على السوءات بمعنى يلزمها.

فقال حين هجا قبيلة يشكُر:

وَيَـشْكُـــرُ كَـــــانَ مَنْـزِلُهـــا قَديـمًـــا بِـــمَنْـزِلَـــــةِ الأَذِلّاءِ الضِّـــعـــــافِ
ويَشْكُـــــرُ لا أَخـــو كَـــرَمٍ فَيُخْثَـــــى، ولا مُتَحَفِّـــــلٌ بـــالجَـــــارِ وَافِـــــي
قُبَيِّلَـــــــةٌ أَذَلُّ مـــــن السِّـــــوانِـــــي، وأَعْـــرَفُ للهَـوانِ مـــنَ الخِصـــافِ[1]

في هجاء مرٍّ يعبّر الشّاعر عن موقفه اتجاه قبيلة يشكر ويهجوها بالذلّ والضّعف، وهو يرى أنّهما صفتان قد خُلقتا مع هذه القبيلة منذ القدم وتوارثته بعد ذلك الأجيال اللاحقة، وأيضا هذه القبيلة في نظره لا تعرف معنى الكرم والجود ولا تُعطي جيرانها حقّهم من التّقدير والاحترام، فتناقضت بذلك مع ما عرفه العرب من صفات نبيلة وأخلاق كريمة. وقد خصّ بعض الأبيات في هجاء وتهديد شاعر من شعراء يشكر وهو حميد اليشكري، فقال:

فَـــلَا تَجْـــزَعْ مِنَ النَّقَمَـــــاتِ، واتْـــرُكْ رُوّاة الشِّـــــعْرِ تطَـــــرّدُ القَوَافـــــي
أَتَحْسَبُ يـــابنَ يَشْكُـــرَ أنَّ شِـــعْـــرِي كَلَفْـــتِ المُـــرْتَـــدِي طَـــرَفَ العِطَافِ
رُوَيْـــدَكَ تَسْتَغـــــبَّ، فـــإِنَّ فيهَـــــا دِمَـــــاءَ ذُرارِحِ السُّـــــمِّ الذُّعَـــافِ[2]

خاطب الطّرمّاح شاعر يشكر وهو "حميد اليشكري" بنبرة فيها نوع من الوعيد والتّهديد، فطلب منه أن يترك روّاة الشعر يتناقلوا فيما بينهم الشّعر الذي ورد فيه هجاء له ولا يجزع من هذا الأمر، وبروح غاضبة حذّره من أن يتعرّض طريقه؛ فإنّ لسانه قاسي وشعره كالسّم القاتل يؤدي كل من يتجرّأ على هجائه أو هجاء قبيلته. وفي الموضوع ذاته يتابع الشّاعر وعيده بهجاء لاذع مقذع، فقال:

سَأُهْـــدي إِلـــى الأَذْنَـــــابِ أَوْلَادَ يَشْكُـــرٍ قَـــوَافِيَ شِـــعْرٍ لَـــيْسَ يَنْمِي سَلِيمُهَـا[3]

[1] الطّرمّاح: الديوان، ص199. السواني: جمع سانية، وهو البعير الذي يستقى عليه الماء من البئر، الخصاف هي قطعة الجلد التي يصنع بها النعل.
[2] المصدر نفسه، ص198. ذرارح هي دويبة أعظم من الذباب شيئا، الذعاف: السم القاتل.
[3] المصدر نفسه، ص247.

أمّا قبيلتا أسد وضبّة فقد نالتا نصيبهما من هجاء الطّرمّاح، حيث هجا الأولى بالذلّ والحقارة والضّآلة، وهي لظلّة عددها قد خفيت عن النظر، ولو وُجد ما قد يُخفى عن الله عز وجل لخفيت عنه هذه القبيلة، وفي التعبير مجاز يشير به إلى قلّة أهل هذه القبيلة وصغر مساحتها، كما أنّها ذليلة ذلّ الوتد الذي يضرب ليحكم وضعه في الأرض، فلا تتمرّد ولا تغضب بل تصبر على المهانة والقهر، وغيرها من الصّفات التي جعل منها الشّاعر وسيلة لوضع هذين القبيلتين المعاديتين لقبيلته في أدنى المواضع، فقال:

لَـــوْ كَـــانَ يَخْفَـــى عَلَـى الرَّحْمَانِ خَافِيَّةٌ مِـــنْ خَلْقِـــهِ خَفِيَـتْ عَنْـــهُ بَنُـــو أَسَـــدِ
لَا يَنْفَـــعُ الأَسَدِيُّ الدَّهْـــرَ مَطْعَمُـــــهُ فِـــي نَفْسِـــهِ، وَلَـــهُ فَضْـــلٌ عَلَـى أَحَدِ
قَـــــوْمٌ أَقَـــــامَ بِـــدَارِ الذُّلِّ أَوَّلُـــــهُمْ كَمَـــا أَقَامَـــتْ عَلَيْـــهِ جِذْمَـــةُ الوَتَـدِ
أَبْـــدَتْ فَضَائِحَهَـــا لِلْأَزْدِ، وَاعْتَـــذَرَتْ بَعْـــدَ الفَضِيحَـــةِ بِالبُهْتَـــانِ وَالفَنَـــدِ
لِكُلِّ حَيّ عَلَـــى الجَعْرَاءِ، قَـــدْ عَلِمـــوا، فَضْلٌ، وَلَيْسَ لَكُمْ فَضْلٌ عَلَـــى أَحـــدِ[1]

والقبيلة الثانية ضبّة هجاها باللّؤم والجشع الذي قد أوغل جذوره فيها وأصبح ثابتا في نفوس أهلها، وكلّ لؤم مع مرور الوقت يبيده الزمن ويقضي على أمره إلا أنه في هذه القبيلة لم يزل ولم يقل، فقال:

وَكُـــلُّ لُـــؤْمٍ يُبِيـــدُ الدَّهْـــــرُ أَثْلَتَـــهُ، وَلُـــؤْمُ ضَبَّـــةَ لَـــمْ يَنْقُـــصْ وَلَمْ يَبِدْ[2]

بالإضافة إلى صفة الذل، قد كثرت مخازي ضبّة لدرجة أنها لو أبيدت بكاملها ولم يبق لها أثر فإنّ التّاريخ سيظلّ يذكر مساوئها ومخازيها على امتداد العصور، حيث قال:

أُخْبِـــرْتُ ضَبَّـــةَ تَهْجُونِـــي لأَهْجُوهَـــا وَلَـــوْ حُدُوا كَحَـــدَاءِ القَيْـــنِ مَـــا عَادُوا
لاَ يُكْثِـــرُونَ وَإِنْ طَالَـــتْ حَيَاتُـــــهُمُ، وَلَا تَبِيـــــــدُ مَـــخَازِيـــهِمْ إِذَا بـــادُوا[3]

[1] الطّرمّاح: الديوان، ص126. جذمة الوتد هي قطعة الوتد.
[2] المصدر نفسه، ص126. أثلته: أصله.
[3] المصدر نفسه، ص129.

وقد يلجأ الطّرمّاح إلى الجمع بين عدد من القبائل ليهجوها في مقطع واحد، من ذلك قوله:

أَرَى اللَّيْـــلَ يَجْلُـــوهُ النَّهَـــــارُ، وَلَا أَرَى خِلَالَ المَخَـــــازِي عَنْ تَمِيـــمٍ تَجَلَّـــتِ
وَضَبَّةُ تَهْجُـــــونِي، وَكَـــانَتْ لِطَـــــيِّءٍ قَطِينًـــــا، فَأَضْحَـــتْ غَـــيْرَهُمْ قَـــدْ تَوَلَّتِ
وَعُكْـــلٌ عَبِيـــدُ التَّيْـــمِ، والتَّيْـــمُ أَعْبَـــــدُ إِذَا قِيـــلَ: خَلِّـــي عَنْ حِيَاضِكِ، خَلَّتِ[1]

عاشت تميم في ذلّ وقد صاحبتها مخازيها وتعوّدت عليها حتّى صارت بالنّسبة لها بمثابة الأخلاق الحميدة، فلا ترى حقيقتها السيّئة والسلبيّة، أما قبيلة ضبّة فكانت في السّابق عبيدة لطيّء وخادمة لها ثم تخلت عن ولائها لها لتصبح تابعة لغيرها، فهي بفعلها هذا تتصف بعدم الولاء لأسيادها، في حين أنّ قبيلتي عكل وتيم ـ وهما من القبائل العدنانية ـ كلّ واحدة منهما أعبد من الأخرى، لدرجة أنّهما لا تقاومان لأجل الحصول على حقّهما أو على حريّتهما.

وفي مقطع آخر قال:

نُبِيـــتُ تَمِيمًـــــا تَجْتَـــــدِي حَـــرْبَ طَيِّءٍ، تَبَارَكْـــتَ يَـــــارَبَّ القُـــرُونِ الأَوَائِـــلِ
وَمَـــــا خُلِقَـــتْ تَيْـــمٌ وَزَيْـــدُ مَنَاتِهَـــا وَضَبَّـــةُ إِلَّا بَعْـــــدَ خَلْـــــقِ القَبَائِـــلِ
عَرَاقِيبُ ضـــــمَّ الـــــذُّلُّ وَاللّـــــؤْمُ بَيْنَـــــهُمْ كَمَـــا انْظَـــمَّ شَخْصُ الخَارِئِ المُتَضَائِلِ[2]

تتمنى تميم أن تخوض حروب مع طيّئ، غير أنها في الواقع جبانة لا تتجرأ على فعل ذلك، فهي وتيم وضبّة من أخزى وأعرّ القبائل العربيّة وأقلها شأنا، ضمهم اللؤم كما ينظم الإنسان الخارئ المتضائل، وفي هذا التشبيه وظف الشّاعر لفظ غير محتشم بذيء غير أنه لم يوغل في بذاءته. ومن مجمل المقطوعات التي قد تم التطرّق إليها وذكرها يمكن الملاحظة أنّ الطّرمّاح لجأ إلى هجاء أعدائه بصفات معنويّة سلبيّة تؤثّر بشكل مباشر في ذوات خصومه، وتحدث وقع كبير في نفوسهم.

---

[1] الطّرمّاح: الديوان ، ص75. قطين: خدم الرجل وأتباعه.

[2] المصدر نفسه، ص205.

2.2 الهجاء الخَلقي:

لم يقم الطّرمّاح في هجائه بتعييب الجانب الشّكلي لأعدائه إلا في بيت واحد لمّا هجا بني تميم، إذ قال:

لَـهُمْ نَفْـرٌ سُـودُ الوُجـوهِ، ونِسْـوَةٌ قِبـاحُ الأَعَالِـي مُحْمَشَـاتُ الأَسافِلِ[1]

وقد جمع فيه بين هجاء الرّجال والنّساء من بني تميم، فوصفهم بقبح وجوههم وسوئه وبشاعته، وخصّ الشّطر الثاني بالنساء؛ فقد جعلهنّ ضعيفات ودقيقات الأسافل، كما أنّهن قباح الخِلْقة، والطّرمّاح لم يلجأ إلى الحديث عن الجانب الخَلْقي والمظهر الخارجي في مجمل شعره، ذلك لأنّه انتمى إلى المذهب الخارجي، ومن المعروف أنّ هذا الاتّجاه اشتهر بتديّنه وتشدّده في تطبيق تعاليم الإسلام، والشّكل الخارجي هو من خلق الله عزّ وجلّ وحده ولا دخل للبشر في تكوينه، لذا لم يتعدّوا حدود الدّين، وبالمقابل جعل الشّاعر مختلف الأخلاق التي اكتسبها الإنسان وتحلّى بها مصدرا أولا ومنبعا هامّا لهجائه.

على غرار كثير من شعراء العصر الأموي الذين جعلوا من تعييب الخِلقة موضوع بارز لهجائهم، قد تجنّب الطّرمّاح هذا النّوع من الهجاء، غير أنه عوّض الأمر بموضوعات أخرى متداولة وجعل من تهديده لأعدائه وتخويفه لهم منطلقا لشعر هجائه، ومن أروع ما قاله في هذا الميدان:

وَلَـــوْ أَنِّـــي أَشَـــاءُ حُـــدُوثَ قَـــوْلًا عَلَـــــى أَعْلَامِـــــهِ المُتَبَيِّنَـــاتِ
لِأَعْقَـــدَ مُقْـــرِفَ الطَّرَفَيْـــنِ، تَبْنِـــي عَشِيرَتَـــهُ لَـــهُ خِـــزْيُ الحَيَـــاةِ
مَتَـــى مَـــا أَحْـــذُ مَثْلَبَـــةً لِقَـــوْمٍ أواصـــلْ بَيْنَهَـــا بِـــالنّاقِـــرَاتِ
تَفَـــادُوا مِـــن أَذَايَ كَمَـــا تَفَـــادَى مِـــنَ البَـــازِي رَعِيـــلُ حُبَارِيَـــاتِ[2]

[1] الطّرمّاح: الديوان، ص205.

[2] المصدر نفسه، ص63 ـ 64. الأعقد: لئيم أعقد، ويقال الأعقد الكلب، الناقرات: الكلام الذي يعيب فيه الإنسان غيره، رعيل: القطعة من الطير، الحبارى: طائر كبير على شكل إوزّة.

3.2 الهجاء السياسي:

تطرّق الطّرمّاح إلى الموضوعات السياسيّة وذكر الوقائع التاريخيّة في هجائه، حتى يتمكّن من إظهار بطولات قومه وما حققّوه من انتصارات في الوقائع والحروب، وليقوم بتعميم مخازي أعدائه والتّذكير بفشلهم وبخسارتهم، ومن ذلك قوله في هجاء تميم حين فخر الفرزدق بمآثر قبيلته في واقعة العقر:

فَخَـرْتَ بِيَـوْمِ العَقْـرِ شَرْقَـيَّ بَابِـلٍ وَقَـدْ جَبُنَـتْ فِيـهِ تَمِيـمٌ وَقَلَّـتِ
فَخَـرْتَ بِيَـوْمٍ لَـمْ يَكُـنْ لَـكَ فَخْـرُهُ وَقَـدْ نَهِلَـتْ مِنْـكَ الرِّمَـاحُ وَعَلَّـتِ
كفخـر الإمـاء الراحيـات عشيـة بِرَقْـمِ حُدُوجِ الحَـيِّ حِيـنَ اسْتَقَلَّـتِ
فَبِـالعُقْرِ قَتْلَـى مِـنْ تَمِيـمٍ خَبِيثَـةٌ وَلِلْمِصْـرِ أُخْـرَى مِنْـهُمُ مَـا أَجَنَّـتِ
فَمَـا لَقِيَـتْ قَتْلَـي تَمِيـمٍ شَهَـادَةً وَلَا صَبَـرَتْ لِلْحَـرْبِ حِيـنَ اشْمَعَلَّـتِ
كَتَائِبُ مِـنْ قَحْطَـانَ بِالعُقْـرِ أَوْقَعَـتْ وَقَائِـع فِيـها أَعْظَمَـتْ وَأَجَلّـتِ[1]

شرع الشاعر في إحباط نفوس التميميّين الذين فخروا بما أحدثوه في يوم العقر عام اثنين ومائة[102هـ] للهجرة، وقد جرت أحداثها بمكان العقر "وهو موضع بقرب كربلاء من العراق بين يزيد ابن المهلب وبين مسلمة عبد الملك بن مروان، قُتل فيها يزيد وكُسر جيشه وانهزم آل المهلب ثمّ ظفر بهم مسلمة فقتّل فيهم وبدّع، وقلّ من نجا منهم،"[2] بالرّغم من خسارة يزيد بن المهلب، والذي كان المثال والنموذج الإنساني الأعلى عند الطّرمّاح غير أنّه يرى أنّ فخر تميم هو فخر زائف، فلم تقم بما تستحق أن تعتز به أو تتغنّى به في أشعارها، إذ أنها جبُنت ولم تظهر أي بطولة، على عكس جيوش القحطانيين الذين انتصروا في وقائع كثيرة في هذا الموضع، لتصبح قحطان بفضل قوّتها وشجاعتها أعظم وأجل القبائل العربيّة، وقد كان لهذا الهجاء أثر في تميم فردّ عليه الفرزدق بهجاء مرّ لاذع.

[1] الطّرمّاح: الديوان، ص73 ـ 74.

[2] الذّهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تح: عمر عبد السلام تدمري، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1990م، ص08.

فقال في نقيضته:

لَقَـــد هَتَـــكَ العَبْـــدُ الطِّرِمَّـــاحُ سِتْرَهُ، وَأَصْلَـــى بِنَـــارِ قَوْمِـــهِ فَتَصَلَّـــتِ
سَعِيـرًا شَـوَتْ مِنْـــهُم وُجُوهًـــا كَأَنَّهَـــا وُجُوهُ خَنَازِيرٍ عَلَـــى النَّـــارِ مُلَّـــتِ[1]

لم يكن "يوم العقر" الحادثة السياسيّة الوحيدة التي ذكرها الشّاعر في مقاطع هجائه، بل كانت هناك أحداث أخرى منها ما وقع "يوم أوارة" وما لحق نسب الفرزدق "دارم" من نتائج وخيمة، جعلت الطّرمّاح يفخر بما فعله قومه بهم، ويعتزّ بالأعمال التي حققوها في هذا اليوم العظيم، حيث قال:

وَدَارِمٌ قَـــدْ قَذَفْنَـــا مِنـــهُمُ مائـــةً فِـــي جَاحِـمِ النَّـارِ إِذْ يَنْزُونَ فِـي الخُـدَدِ
يَنْـــزُونَ بِالمُشْتَـــوى مِنْهَـــا، وَيُوقِدُهَـــا عَمْـــرُو، ولَولا شُحُـــومُ القَـــوْمِ لَـم تَقِـدِ
فَاسْـــأَل زُرَارَةَ والمَأْمُـــومُ مَـــا فَعَلَـتْ قَتْلَـــى أُوَارَةَ مِـــن زَغْـــوانَ والكَـــدَدِ[2]

إلى أن يصل إلى قوله:

يَوْمَـــا أُوَارَةَ مـــن أَيَّـــامِ نِعْمَتِنَـــا، وَيَوْمُ سَـــلْمَى يَـدٌ، يـا ضَـبَّ، بَعدَ يَـدِ[3]

فخر الشّاعر في هذه الأبيات بما قام به عمرو بن هند حين غزا دارم، حيث أنّ جيوشه رموا مائة شخص من قوم الفرزدق في النّار، وقد كانت جثثهم سببا في إبقاء النار متوهجة لفترة طويلة، وهذه الواقعة يرجع سببها إلى أنّ "أسعد بن المنذر أخ عمرو بن هند ملك الحيرة كان مسترضعا في بني دارم في حجر حاجب بن زرارة بن عدس بن زيد بن عبد الله بن دارم. فانصرف ذات يوم من الصيد وبه أثر النبيذ، فرمى ناقة لسويد بن ربيعة بن زيد بن عبد الله بن دارم، فقتله سويد. فغزاهم عمرو بن هند، فقتلهم يوم القصيبة وأوارة. ثم أحرق

[1] إيليا حاوي: شرح ديوان الفرزدق، ط1، ج1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1983م، ص191.
[2] الطّرمّاح: الديوان، ص 124 ـ 125.
[3] المصدر نفسه، ص125. زرارة هو عدس بن زيد بن عبد الله بن دارم، والمأموم هو بن شيبان بن علقمة بن زرارة، زغوان والكدد من نواحي أوراة.

منهم مائة رجل في أخدود حفره لهم وحجم فيه النار."[1] أراد الطّرمّاح أن يذكّر الفرزدق بهذه الواقعة حتى يحط من قيمته، فقد لاقى قومه الهوان والذل والقتل.

وذكر أيضا لمّا قُتل قتيبة بن مسلم عام ستة وتسعين[96هـ] للهجرة، حين عزم قتيبة على خلع سليمان بن عبد الملك من حكم الخلافة، غير أنه لم يُبد أي شخص اهتماما بهذا الأمر، فأخذ يؤنّب كلّ قبيلة إلى أن غضب الناس منه وسعوا إلى قتله، فقام بهذه المهمة وكيع بن أبي سود وقد قُتل معه أحد عشر رجل من إخوته وأبناء إخوته، وكان قد لقيه بجموع تميم والأزد،[2] فقال الطّرمّاح في هذا الموضوع:

لَـــوْلَا فَـــوَارِسُ مَذَحِـــجِ ابْنَـــةِ مَذْحِـــجٍ وَالأَزْدِ زُعْـــزِعَ واسْتُبِيـــحَ العَسْكَـــرُ
وتَقَطَّـعَتْ بِـــهِمُ البِـــلادُ، وَلَـــمْ يَـــؤُبْ مِنْـهُمْ إلـــى أَهْـــلِ العِـــرَاقِ مُخَبِّـــرُ
واسْتَطْلَقَـــتْ عُقَـــدُ الجَمَاعَـــةِ، وازْدُري أَمْـــرُ الخَلِيفَـــةِ، وَاسْتُحِـــلَّ المُنْكَـــرُ
قَـــوْمٌ هُـــمْ قَتَلُـــوا قُتَيْبَـــةَ عُنْـــوَةً والخَيْـــلُ جَانِحَـــةٌ، عَلَيْـــهَا العِثْيَـــرُ
بالمَـــرْجِ مَـرْجِ الصِّيـــنِ، حَيْـــثُ تَبَيَّنَـــت مُضَـــرُ العِـــراقِ مَـــنِ الأَعَـــزُّ الأَكْثَرُ[3]

لمّا لم يلق قرار قتيبة احترام الناس ولم يُلتزم بتنفيذه شاع المنكر والفساد لدرجة أن القبائل عملت على قتله، وقد وقع هذا الأمر ببلاد الترك. وعبّر الشّاعر عن موقفه السياسي في قوله:

وَنَجَّـــاكَ مِـــنْ أَزَدِ العِـــرَاقِ كَتَائِـــبٌ لِقَحْطَـــانِ أَهْـــلِ الشَّـــامِ لَمَّـــا اسْتَهَلَّتِ
هُـــمْ الفَاتِقُـــونَ الرَّاتِقُـــونَ، وَأَنْتُـــمُ عَضَـــارِيطُ للسَّـــوْءَاتِ حَيْـــثُ اسْتَحَلَّـــتِ
وَيَفْتُـــقُ جَانِبَيْنَـــا، ونَرْتُـــقُ فَتْقَـــهُ إِذَا مَـــا عَظِيمَـــاتُ الأُمُـــور اسْتَجَلَّـــتِ

[1] الطّرمّاح: الديوان، ص124 ـ 125.
[2] ينظر: الدمشقي، حافظ ابن كثير: البداية والنهاية، ط8، ج9، مكتبة المعارف، بيروت، لبنان، 1990م، ص167.
[3] الطّرمّاح: الديوان، ص163. مذحج هم من قبائل اليمن، الخيل الجانحة: المائلة، العثير: الغبار.

بِجَيْـــشٍ مِـــنَ الأَنْصَـــارِ لَـــوْ قَذَفُوا بِهِ شَمَارِيـــخَ رَضْـــوَى الشَّامِخَـاتِ لَخَـرَّتِ
إِذَا المِنْبَـــرُ الغَرْبِـــيُّ زُعْـــزِعَ مَتْنُـــهُ وَطَدْنَـــا لَـــهُ أَرْكَانَـــهُ فَاسْتَقَـــرَّتِ[1]

أطلق الشّاعر العنان لموهبته الهجائيّة محاولا التّأكيد على موقفه وموقف قومه، فتميم لم تكن ذات مشاركة بارزة في الحروب بل مثّلت قلّة نادرة تحتمي بأطراف أخرى، ليقدّم الطّرمّاح بعدها اعتذار غير صريح بدلا عن يزيد ابن المهلب، والذي كان جانيا وصنع سوء هو وآله حيث أن أهل الطّرمّاح أصلحوا الأوضاع، وهم في اتجاههم السياسي يساندون الأمويّين، فمتى زعزع ملكهم سارعوا إلى توطيد أركانه وأسسه.

وأضاف مؤكّدا على موقفه في قوله:

إِذَا الشَّـــامُ لَـــمْ تَثْبُـــتْ مَنَابِـــرُ مُلْكِـــهِ وَطَدْنَـــا لَـــهُ أَرْكَانَـــهُ فاسْتَقَـــرَّتِ[2]

إنّ طيّء اليمنية التي ينتمي إليها الشاعر تساند بني أمية وتبذل جهدها لكي تبقيها في السّلطة وعلى رأس الخلافة، وأي خطر يقترب منها أو يهدد وجودها سوف تقضي عليه، والطّرمّاح ساهم في إشعال نار العصبيّة القبليّة والخصومة بين القبائل العدنانيّة والقحطانيّة عبر ما نظمه من شعر هجاء يتناول المضامين السياسيّة.

كما قال في الموضوع ذاته مخاطبا الفرزدق:

وَمَـــا أَنْـــتَ إِن قَـــرمَا أُمَيَّـــةَ أَجْهَـــدَا نُجومًـــا مـــن الأَزْدَيْـــنِ بَعْـــدَ نُجُـــومِ
بِذِي العَـــرْضِ نَالَتْهُم أُمَيَّـــة بَعْدَمـــا مَنَحْتُـــمْ رِمـــاحَ الأَزْدِ كـــلَّ حَرِيـــمِ
أَبَعْـــدَ غَـــدَاةِ الأَزْدِ تَطْمَـــعُ أَنْ تَـــرَى لِقَوْمـــكَ يَوْمًـــا ثُـــمَّ غَيْـــرَ ذَمِيـــمِ[3]

[1] الطّرمّاح: الديوان، ص71 ـ 72. الفاتقون: المفسدون بالجنايات، الراتقون: المصلحون بأداء الديّات، العضاريط: الخدم، نرتق فتقه: نصلح ما أفسده، رضوى: جبل عظيم بالمدينة، منبر الغربيين: يريد به ملك الأموين في دمشق.
[2] المصدر نفسه، ص78.
[3] المصدر نفسه، ص256.

فالنصر سيكون حليف بني أمية على الدوام، وعلى تميم أن لا تطمع في أن يكون لها الأمر ذاته لأنه غير ممكن. بذلك يعدّ شعر الطّرمّاح سجلا حافلا بعديد من الموضوعات السياسيّة والتاريخيّة وبالأخص في هجائه، وقد بلغت العصبيّة عنده حد كبير، فقام بتسخير هجائه للرّفع من مكانة قومه وإثبات وجودهم والتّعبير عن أهدافهم، وأيضا استخدمه للحط من مكانة كل من يتعرض لهم أو يقف في طريقهم، وهذه القضية قد فرضتها الحياة القبليّة العصبية.

4.2 الهجاء بموضوع الدّين:

يعدّ الهجاء الدّيني أقسى وأقذع صور الهجاء، حيث يتعرّض فيه الشاعر للدّين والعقيدة والمذهب، فمن جهة يمدح فريقه بتمسّكهم بقواعد الدّين والتزامهم بمبادئه، ومن ناحية أخرى يهجو خصومه بالكفر وبالنّفاق في الدين. وقد زخر شعر الطّرمّاح بالمعاني الإسلاميّة وبالهجاء الديني، فلجأ إليه كموضوع أساسي ليفخر بنفسه وبقبيلته كما عدّه سلاح لهجاء الأعداء، ومن ذلك قوله:

بِـــهِمْ بَيَّـــضَ الله الخِلَافَـــــةَ كُلَّمَـــــا رَأُوا نَعْـــلَ صِنْدِيـــدٍ عَـــنِ الحَـقِّ زَلَّـــتِ
بِـــهِمْ نَصَـــرَ الله النَّبِـــــيَّ، وَأُثْبِتَـــــتْ عُـرَى الحَقِّ فِـي الإِسْـلَامِ حَتَّى اسْتَمَرَّتِ
وَهُـــم دَمَغُـوا بِالحَـــــقِّ أَيَّـــامَ خَالِـــدٍ شَيَاطِينَ أَهْلِ الشِّـرْكِ حَتَّـــى اطْمَأَنَّـــتِ
شَيَاطِيـــنُ مِـــن قَيْـــسٍ وخِنْـدِفَ غَرَّهَـــا مِـــنَ الله مَـــا كَـــانَتْ سَجَـــاحِ تَمَنَّتِ[1]

في الأبيات إشارة إلى فضل قوم الشّاعر الذين نصروا الإسلام والرّسول صلّى الله عليه وسلّم، ودعوا إلى الالتزام بقواعد الدّين الإسلامي والتّمسك بأُسسه، فساهموا بذلك في نشره وتقوية مبادئه، وبفضل حميد أفعالهم بيّض الله عزّ وجلّ الخلافة فأصبحت مباركة، وقد اعتبر المشركين والمُرتدّين عن الإسلام بمثابة شياطين من قبيلتي قيس وخندف، وهما من

[1] الطّرمّاح: الديوان، ص72. صنديد: الرجل الشديد.

"قبائل قريش وبنو أسد وضبّة وتميم وغيرها من القبائل الأخرى التي اتبعت سجاح بنت الحارث التّميميّة بعد أن ادّعت النّبوّة،"[1] هذه القبائل انحرفت عن الإسلام واتّبعت سجاح التي أثرّت فيهم وفي عواطفهم وعقولهم إلى أن غابت عنهم طرق الحقّ والهدى وساروا في طرق الضلال، فاستحقوا أن ينزل بهم العقاب.

مضى الشاعر في هجاء قبيلة تميم من الجانب الدّيني حيث قال:

وَلَــوْ خَــرَجَ الدَّجَّــالُ يَنْشُــدُ ذِمَّــةً لَزَافَــتْ تَمِيــمٌ حَوْلَــهُ، وَاحزَأَلَّــتِ
فَــرَاشُ ضَــلَالٍ بِالعِــرَاقِ وَجَفْــوَةٍ إِذَا مَــاتَ مَيْــتٌ مِــن قُرَيْــشٍ أَهَلَّتِ[2]

إنّ سمة الضّلال والبعد عن الهدى والرُشد متأصّلة في نفوس بني تميم وكذلك في كلّ من يُؤيّدها ويتبع سبلها من القبائل الأخرى، فهي قادرة على أن تبدّل الدّين الصحيح الحق بدين آخر دون أن يؤنّبها ضميرها بسبب فعلها وأن تشعر أنها على خطأ؛ بمعنى أنّ الطّرمّاح يهجو تميم بنفاقها في إسلامها وبضعف إيمانها وبإدّعائها إيّاه، إذ أنّها لم تؤمن حقّا ولم تعرف ما هو الحق من الباطل، فإن حدث وظهر المسيح الدجّال وخرج إلى الأرض لينشر ما يدّعيه من دين وجب على الناس الأخذ به، لكانت هذه القبيلة أوّل من يلتف حوله وأول من يأخذ بدينه الزّائف.

وقال أيضا:

فَمَــــا لَقِيَــــتْ قَتْلَــــى تَميــــمٍ شَهَــــادَةً وَلَا صَبَــــرَتْ لِلْحَــــرْبِ حِيــــنَ اشْمَعَلَّتِ[3]

نتيجة لضعف إيمان تميم فإنّ قتلاها يموتون دون أن ينطقوا بالشّهادة، وهي أولى أركان الإسلام وأهم مبادئ الإسلام، وكلّ من يموت دونها يعتبر غير مسلم، فقد سعى الشّاعر إلى أن يجعل قبيلة تميم كافرة مشركة وبعيدة عن ما أنزله الله عزّ وجلّ من تعاليم

[1] الطّرمّاح: الديوان، ص72.
[2] المصدر نفسه، ص73.
[3] المصدر نفسه، ص74. زافت بمعنى أسرعت في المشي، احزألّت بمعنى اجتمعت إليه.

هذا الدّين، وإن كانت تعتقد أنّ إيمانها قوي وأنّها قريبة من الله عزّ وجلّ فإنّها في الواقع عكس كلّ ذلك.

وأيضا هجا القبيلة نفسها بعدم تسميّتها وعدم نطقها اسم الله عند ذبحها ما أحّله الله، فلم يتقبّل منها، واستمر بوصفها بنفاقها في الدّين وأنّها متى انتهت من تأدية مناسك الحجّ تعود إلى كفرها وشركها دون أن تأبه بما سيحل عليها من عقاب عظيم، على عكس قوم الشّاعر الذين يتّصفون بإيمانهم القوي، فقال:

ذَبَحْنَـــا فَسَمَّيْنَـــــا، فَحَـــــلَّ ذَبِيحُنَـــــا، وَمَـــــا ذَبَحَـــتْ يَوْمًـــا تَمِيـــمٌ فَسَمَّـــتِ
أَفَاضَـــتْ إِلَـــى البَيْـــتِ الحَـــرَامِ بِحُجَّـــةٍ فَلَمَّـــــا أَتَتْـــهُ نَافَقَـــــتْ وَتَخَلَّـــــتِ[1]

وقد ردّ الفرزدق عليه متّهما قومه بإيمانهم خوفا من أن يتعرضوا للقتل لا غير لمّا قال:

وَلَـــوْلا حَـــذَارِ أن تُقَتَّـــلَ طَـــــيِّء لمَـــــا سَجَـــدَتْ لله يوْمًـــا وصَلَّـــــتِ[2]

وقال الطّرمّاح في قوم الفرزدق في قصيدة أخرى من قصائده:

لَـــوْ حَـــانَ وَرْدُ تَمِيـــمٍ، ثُـــمَّ قِيـــلَ لَهَـــا حَـــوْضُ الرَّسُـــولِ عَلَيْـــهِ الأَزْدُ، لَـمْ تَرِدِ
أَوْ أَنْـــــزَلَ الله وَحْيًـــــا أَنْ يُعَذِّبَهَـــــــا إِنْ لَمْ تَعُـــدْ لِقِتَـــالِ الأَزْدِ لَـــمْ، تَعُـدِ[3]

رسم الشّاعر صورة في غاية المبالغة وبيّن عبرها موقفين لبني تميم وكلاهما يثبتان ضعف القبيلة، فالموقف الأول تمثّل في أنّ تميم لا تتجرّأ على أن تقترب من بئر الرسول صلى الله عليه وسلم متى تعرف أن الأزد تقف عنده، وأمّا الموقف الثاني فكان أشدّ مبالغة إذ أنها قادرة على أن تعصي ما أوحاه الله عزّ وجلّ الذي أوحى به إليها لتقاتل الأزد لشدّة لضعفها وخوفها منهم؛ فعندها عقاب الله أهون من مواجهة الأزد وما سيلحقها من هزائم نتيجة القتال معها.

[1] الطّرمّاح: الدّيوان، ص77.
[2] إيليا حاوي: شرح ديوان الفرزدق، ص191.
[3] الطّرمّاح: الديوان، ص123.

5.2 هجاء النّساء:

لقد عُرف عن فنّ الهجاء سلبه لفضائل المهجو وإنكاره لصفاته النبيلة بسبب العداء والصّراع الفردي أو بفعل العصبيّة القبليّة، وفي العصر الأموي لم يتوقّف الشّعراء عند هجاء الرجال بل تجاوزوا الأمر إلى هجاء نساء أعدائهم بغرض الحط من قدر هؤلاء الرجال، "فلا يخفى على أحد أنّ النّيل من مقدّسات الآخرين يثير حفائظهم؛ لشدّة إيلامه، وأثر وقعه في النفوس، وذلك لتمسك الإنسان الشديد بما يقدسه، والمرأة عند العرب تمثّل قيمة عليا من قيمهم، فالذب عنها والتضحية من أجلها يعد شرفا ومجدا، فالعربي يتفانى من أجل صون حرائره، ومنع الحين عنهن بأعز ما يمتلكه الإنسان، فالمساس بها يعني النيل من شرف الأسرة أو القبيلة والحط من قدرها."[1] تعد النساء منذ العصور العربيّة القديمة بمثابة الشرف الذي تقوم عليه الأسر والأنساب ومن المقدّسات الهامّة في المجتمع، فسعى شعراء الهجاء إلى التشهير بهنّ ووصفهنّ بمساوئ الصفات، وبالأخص عملوا على طعنهن في شرفهن وهدفوا أيضا إلى اتهامهن بنشر الفساد والرذيلة والتسبب في خلط الأنساب، واعتبروا هذه المرأة أداة للإطاحة بقدر واحترام الرجال بين النّاس.

لم يتردّد الطّرمّاح في التطرق إلى ذكر النساء في هجائه، وعلى الأخص حين هجا أخت الفرزدق "جعثن"، فأطلق عليها ألفاظ قبيحة ومزّق عرضها ليحدث ألم كبير في نفس الفرزدق، ومن ذلك قوله:

وَلَــوْ كُنْــتَ حُــرًّا لَــمْ تَبِــتْ لَيْــلَةَ النَّقَا وَجَعْثِــنُ تُهْــبَى بِالكُبَــــاسِ وَبالعَــرَدِ
كَمَــا زَعَمُــوا إِذْ أَنْــتَ فِي البَيْتِ مُطْرِقٌ، وَلوْ غِبْتَ فِيمَنْ غــابَ لَــمَ تَــكُ ذَا فَقَــدِ
وَبِــتَّ خِــلَافَ القَــوْمِ تَغْسِــلُ ثَوْبَــهَا بِكَفَّيْــكَ مِــنْ مُسْتَكْرَهِ الصَّائِــكِ الوَرْدِ[2]

[1] جميل بدوي حمد الزهري وهادي سدخ زغير العزاوي: "الهجاء بالمرأة في نقائض جرير والفرزدق"، مجلة القادسية في الأدب والعلوم التربوي، عدد1، مجلد8، 2009م، ص95.

[2] الطّرمّاح: الديوان، ص136. الصّائك: الدم اليابس اللاصق بثوب جعثن، الورد: الأحمر.

لم يلتزم الشّاعر في هذه الأبيات بما تدعوه به خارجيته من الطّهارة والعفّة في اللّفظ والتحلّي بأخلاق تصون النّاس ولا تمسّ كرامتهم أو شرفهم، فقد استخدم مفردات مستكرهة مثل: الكباس والعرد ليطعن جعثن في شرفها، حتى يجعل من الفرزدق ذلك الإنسان الذي لا يدافع عن أخته لمّا كانت تستغيثه.

وقال أيضا:

تُضَيِّـــعُ عُقْـــرَ الجعثِـــنِ ابْنَـــةِ غَالِـــبٍ وَتَبْكِـــي لِقَتْلَـــى مِنْقَـــرٍ وَصَرِيـــمِ
وَتَبْكِـــي عَلَـــى أَصْحَـــابِ لَيْـــلَةِ جعْثِنٍ بُكَـــاءَ امْـــرِئٍ لِلْمُخْزِيَـــــاتِ رَؤُومِ[1]

والبيتان اعتمد الطّرمّاح في نظمهما على ما هجا به جرير أخت الفرزدق، وذلك لمّا تحدّث عن الليلة المشؤومة التي صرخت فيها جعثن طويلا لينقذها الفرزدق من يد الرجال الفاسدين ويأتي لمساعدتها لكنه لم يفعل ذلك ولم يتمكّن من الدّفاع عنها، فقال:

بَنُـــو مِنْقَـــرٍ جَـــرُّوا فَتَـــاةَ مُجَاشِـــعٍ وَشَـــدّ ابـــنُ ذَيّـــالٍ وَخَيْـــلُكَ وُقِّـــفَ
فَبَـــاتَتْ تُنَـــادِي غَالِبًـــا، وَكَأَنَّهَـــا عَلى الرَّضْفِ مِنْ جمرِ الكَوَانِينِ تُرْضَفُ
وَهُمْ كَلَّفُوهَـــا الرَّمْـــلَ رَمْـــلَ مُعَيِّـــرٍ، تَـقُولُ: أَهَـذَا مَشْـــيُ حُـــرْدٍ تَلَقُّـــفُ[2]

وقد قدّم الشّاعر صورة الفرزدق وهو يتذكّر نداء واستغاثة أخته في تلك الليلة، وجعل بكاءه يشبه بكاء النساء، وفي التعبير إشارة إلى ضعف وجبن الفرزدق وعدم اتّصافه بالشجاعة التي تجعله يدافع عن نساء عائلته.

وقال الطّرمّاح في هجائها كذلك:

وَقَـدْ سُـدَّ مَجْـرَى البُـوْلِ مـن بَطْنِ جِعْثِنٍ بِعَقْبَـــاءَ تَسقِيهـــا إذا اخْتَـــلَّ ثِيلُهـــا[3]

[1] الطّرمّاح: الديوان، ص258. منقر وصريم هما حيان من بني كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم، الرؤوم:الملازم للشيء.
[2] جرير: الديوان، ص298.
[3] الطّرمّاح: الديوان، ص226.

لجأ الطّرمّاح إلى هجاء أقرب النساء من الفرزدق وهي أخته، فأمسك بخناقه وجعل شرفه ذليلا مخزيا، ولم يترك وسيلة إلا وقد هجاه بها، ولم يكتف بهجاء جعثن بل تعدّاها إلى جدّته، فاتّهمه بأنه قد زنّى أو نسب الفعل الفاحش إلى قفيرة بنت سكين بن الحارث وهي جدّته، وذلك في قوله:

وَنُبِّئْــتُ أنَّ القَيْــــنَ زَنَّـــــى عَجـــــوزَهُ قُفَيْــرةَ أُمَّ السُّـــــوْءِ أَنْ لَــمْ يَكِدْ وَكْدِي[1]

لقد تنوعت الموضوعات التي هجا بها الطّرمّاح أعداءه، فلم يختلف عن باقي الشّعراء الذين عاشوا في عصره أو عاشوا في عصور سابقة، إذ اتفق الشّعراء الهجّاؤون على موضوعات محدّدة تناقلوها بين أشعارهم، منها الموضوعات الأخلاقيّة والتي جاء فيها ذكر لمختلف الصفات المعنوية السيئة والدنيئة للمهجو، وموضوعات أخرى خَلقية قد ورد فيها تعيب لخلق الله، من بشاعة الوجه وطول الأنف... وإن كان فيها تعدّي وإيلام لنفس المهجو فالشّعراء لم يهتموا لذلك، بل هم بحثوا عن أكثر الطّرق تأثيرا في الأعداء وفي إحباطهم وجعلهم في الدرجات الدّنيا للمجتمع، فجعلوا من هذا الموضوع وسيلة للسّباب فيما بينهم، ثم هناك الموضوعات السياسيّة التي تهجو السلطة الحاكمة أو اتجاهات الأعداء السياسيّة وتفخر بمذهب الشاعر، وأيضا موضوعات دينيّة تتمحور حول اتهام المهجو بالنفاق في الدين والشرك بالله عز وجل، وأخيرا هجاء نساء الخصوم وهو أكثر الموضوعات إيلاما لنفس المهجو وأشدّها مساسا بذاته وبكرامته.

[1] الطّرمّاح: الديوان، ص131.

3 تعريف مصطلح الأسلوب:

يحمل مصطلح الأسلوب من الجانب اللغوي معاني ماديّة وأخرى معنويّة، فعند ابن منظور أُطلق على: "السطر من النخيل، وكل طريق ممتد، فهو أسلوب. قال: والأسلوب الطريق، والوجه والمذهب... والأُسلوب بالضم: الفنُّ؛ يُقال: أخذ فلان في أساليب من القول أي أَفانين منه."[1] فالكلمة تعبّر عن الشّكل الذي تقوم عليه الأشياء والأقوال والفنون.

وقد قدّم الباحث أحمد مختار عمر في معجم اللّغة العربيّة المعاصرة تعريف يشير فيه إلى نفس المعنى الأوّل، فهو الطريقة، المذهب، النمط، ويضيف قوله: "سلكت أسلوب فلان في معالجة المشكلة ـ لكل إنسان أسلوب في الحياة... طريقة في الكتابة "لكل أديب أسلوبه ـ يُغيِّر أسلوبه"، أساليب القول: فنونه المتنوّعة."[2] ومن التّعريف يتّضح أن اللفظة إما أن تأتي بمعنى المذهب، أو بمعنى الفن، أو الطريقة التي يتّبعها المتعلّم أثناء تركيب الألفاظ والعبارات وصياغتها ومن ثمة توجيهها للمتلقي، وغيره من المعاني الأخرى.

ومن الناحية الاصطلاحيّة الأسلوب هو: "طريقة يستعملها الكاتب في التعبير عن موقفه والإبانة عن شخصيته الأدبية المتميّزة عن سواها، لاسيّما في اختيار المفردات، وصياغة العبارات، والتشابيه والإيقاع. ويرتكز على أساسين: أحدهما كثافة الأفكار الموضّحة، وخِصبها، وعمقها، أو طرافتها. والثّاني تَخَيُّل المفردات، وانتقاء التراكيب الموافقة لتأدية هذه الخواطر..."[3] فالأسلوب يعتبر الوسيلة أو الطريقة التي ينتهجها المتكلّم ليوصل أفكاره ومواقفه وأيضا ليتمكّن من نقل أحاسيسه ومشاعره ويُبلغها إلى القارئ أو المتلقي في قالب إبداعي يتميّز به عن غيره من المتكّلمين، إذ أنه لكلّ فرد أسلوبه الخاص به.

---

[1] ابن منظور: لسان العرب، د ط، م1، دار صادرن بيروت، لبنان، ص473.

[2] أحمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة، ط1، م1، عالم الكتب، القاهرة، مصر، 2008م، ص1089.

[3] جبّور عبد النّور: المعجم الأدبي، ص20.

وهو"الصّورة اللفظيّة التي يعبَّر بها عن المعاني أو نظم الكلام وتأليفه لأداء الأفكار وعرض الخيال، أو هو العبارات اللفظية المنسقة لأداء المعاني"[1]، إنّ مختلف الألفاظ تجسد اللغة المكوّنة للنص وهي أساس لتحديد الأسلوب، وأيضا هي بمثابة الأفكار والصور والعواطف التي تعد جزء من الأسلوب وتمكّن من معرفة خصائصه وسماته.

والأساليب أنواع عديدة، فعلى أساس الموضوع تنقسم إلى الأسلوب البسيط السّهل والذي يناسب الحوار، والأسلوب المعتدل الوسيط الذي يصلح للتّاريخ، والأسلوب الجزل يكون مناسب للمأساة، أما على أساس ظواهر النص فينقسم إلى أسلوب الشّعر والنثر، وكل منهما يختلف عن الآخر.[2] وهناك قسمين بارزين من الأسلوب، الأوّل يتمثل في الأدبي الذي يخص الشّعر على اختلاف أغراضه والنثر بتنوع فنونه من القصة والحكاية والمقامة والمسرحية... يقوم على الإبداع والبعد في الغالب عن الموضوعيّة، والثاني يتجلّى في الأسلوب العلمي والذي يكون في العلوم التجريدية يتميز بالموضوعية والابتعاد الذاتيّة.

وبين الموضوع والأسلوب علاقة تكامل وتبادل إذ لا يمكن فصلهما، "فالموضوع هو المادة الكتابية، والأسلوب هو بناء هذا الموضوع،"[3] وكلما تنوّع الموضوع الذي يتناوله الإنسان في حديثه يتنوّع معه بالضرورة الأسلوب الذي يتكلم به؛ فأساليب الموضوعات العلميّة تتطلب الموضوعيّة دائما والبعد عن الخيال والمجازات، في حين الأسلوب الأدبي لا يخلو من الاستعارات التي تخلق تأثيرا في المتلقي، كما أنها تجمع بين الذاتية والموضوعية أحيانا.

---

[1] أحمد الشايب: الأسلوب، دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية، ط2، مكتبة النهضة المصرية، 1991م، ص46.

[2] علي حاجى خانى: "الأسلوب والأسلوبية وعناصر الأسلوب الأدبي من منظور القرآن الكريم"، مجلة فصلية إظاءات نقدية، عدد8، كانون الأول 2012م، ص 81 ـ 82.

[3] محمد التونجي: المعجم المفصل في الأدب، ص841.

4 أساليب الهجاء عند الطّرمّاح:

وردت أغلب أشعار الطّرمّاح الهجائيّة مقلّدة لتلك التّي انتشرت في العصر الجاهلي، فقد اتّبع أساليب وطرق الشّعراء السّابقين له وسار على نهجهم وعلى سبلهم، ولا يُخفى أنّه قد أجزل وأفصح في أسلوبه الشّعري، فقام هجاءه ـ عكس أغراضه الأخرى ـ على البساطة في التّعبير والوضوح في المعنى وأيضا البعد عن الغموض والتّعقيد، فتجنب بذلك الإغراق في الغريب والوحشي من الألفاظ والمعاني، موظّفا في نظمه مختلف الوسائل الفنيّة الجماليّة من تكرار بمختلف أنواعه، واستخدامه للصور البيانيّة البلاغيّة وللغة الجماليّة جعلت قوله أقوى وأكثر قابليّة للتّأثير والتصديق، بالإضافة إلى اعتماد هجائه بشكل واسع على الأساليب الإنشائيّة من نفي وتعجّب ونداء... إنّ مختلف العناصر التي اتّبعها الشاعر خلال تأليفه لأشعاره الهجائيّة قد لعبت دورا فعّالا في بث الحياة في نصوصه الشعريّة ووضعتها في موضع لائق وهام، كما أنّها سمحت له بأن ينافس غيره من شعراء الهجاء، فساعدته على أن يخلق لنفسه مكانة بارزة بينهم.

1.4 اللغة:

تعدّ اللغة وسيلة الشّاعر في التّعبير ومادّته الخام تتكوّن على يده، ويستطيع أن يُحييها عبر نقل تجاربه الحسيّة ومواقفه الشعورية وعواطفه الخاصّة، وقد جاءت لغة الطّرمّاح الهجائيّة بسيطة سهلة في أغلبها غير وحشية ولا غريبة ولا متكلّفة؛ ذلك أنّ الشاعر يميل في هذا الفن إلى إخراج العيوب وإظهارها وتعقبها لدى المهجو وإيصالها إلى جميع فئات المجتمع، ممّا يستدعي مفردات واضحة يتمكن جميع أهل عصره من استيعابها وفهم محتواها ومعرفة الغرض من ورائها، ومن ثمة يسهل حفظها وتداولها بين أكبر عدد من النّاس، فتنتشر على نطاق أوسع. إنّ سيطرة خاصيّة البساطة عل هجاء الطّرمّاح لا تعني خلوّه

الكامل من الغريب، إلا أنه قليل جدّا مقارنة مع الوحشي الذي ورد في أغراضه الأخرى وعلى الأخص لمّا نظم في غرض الوصف.

بالإضافة إلى سهولة اللغة ووضوحها كانت انفعاليّة نقلت مشاعره، ومن المعروف أن "فن الهجاء يستمدّ خصائصه ووجوده من عاطفة الغضب، فمن الطّبيعي أن تنعكس هذه الخاصيّة على لغته، فتأتي مشحونة بالحدّة والتوتر والانفعال."[1] فقد حمل هجاء الشاعر كمّا كبيرا من الغضب والسخط على أعدائه، سواء كانوا أفراد مثله أو قبائل بأكملها، وقد صبّ غضبه نحوهم، وحاول عبر تراكيبه وعباراته أن يحط من منزلتهم، من ذلك قوله:

وَقَــدْ أَلْجَأَتْــكَ الأَزْدُ يَــوْمَ لَقِيتَهَــا إِلَــى حَسَــبٍ يَــابْنَ القُيُــونِ لَئِيــمِ
مَعَاشِــرٌ مِــن ..... فَتَخَــالُــهُم صَمِيمًــا، ومَــا هُمْ عِنْدَنــا بِصَميــمِ
فَــإِنَّ تَمِيمِيًّــا يُسَامِــي بِقَوْمِــهِ جَمَــاجِمَ مِــن قَحْطَــانَ غَيْــرُ حَلِيمِ[2]

لمّا كان مصدر الهجاء منبثق عن عاطفة الكره والحقد عمد الشاعر بأساليب متنوعة إلى الاستهزاء بخصومه، ومن ذلك اللجوء إلى لغة ساخرة تهدف إلى إيلام المهجو، وتترصد العيوب وتخرجها في قالب فكاهيّ تثير الضّحك لدى المتلقين، وأبرز نموذج على هذا الأمر قوله:

فَلَــوْ أَنَّ يَرْبُوعًــا يُزَقّــقُ مَسْكَنَــهُ إِذَا نَهَلَــتْ مِنْــهُ تَمِيــمٌ، وَعَلَّــتِ
وَلَــوْ أَنَّ بَرْغُوثــا عَلَــى ظَهْــرِ قَمْلَةٍ يَكُــرُّ عَلَــى صَفَّــيْ تَمِيــمٍ لَوَلَّــتِ
وَلَــوْ جَمَعَــتْ تَمِيــمٌ جُمُوعَهَــا عَلَــى ذَرَّةٍ مَعْقُولَــةٍ لَاسْتَقَلَّــتِ
وَلَــوْ أَنَّ أُمّ العَنْكَبــوتِ بَنَــتْ لــهم مِظَلّتهــا يَــوْم النَّــدى لأَكَنَّــتِ[3]

[1] فوزي عيسى: الهجاء في الأدب الأندلسي، ط1، دار الوفاء، الإسكندرية، مصر، 2007م، ص195.
[2] الطّرمّاح: الديوان، ص259.
[3] المصدر نفسه، ص77 ـ 76. يزقّق بمعنى ينتزع جلده ويصنع به وعاء للشرب، ذرّة: نملة صغيرة.

إنّ الشّاعر هنا يسخر من بني تميم ويضعهم في موضع الحشرات من القمل والنمل والبرغوث والعنكبوت، ليشير إلى قلّة عددهم وأيضا ليبيّن مقدار ضعفهم، فإناء واحد من الماء قادر على أن يشبعهم جميعا، ولو أنهم ركبوا على ظهر نملة لكفتهم، كما أنّ نسيج العنكبوت يمكنه أن يحميهم من المطر، وإذ هاجمها البرغوث الذي يركب قملة أخافها وأرهبها. قد أفرط الطّرمّاح في وصف مآخذهم، واستعمل السخريّة سلاحا حادا للوصول إلى غايته، وهي إبقاء تميم في أخفض الدرجات وجعلها منبوذة ومكروهة بسبب صفاتها الخبيثة.

2.4 الصور البيانيّة:

تعتبر الصّور البيانيّة وسيلة الأديب في التّعبير عن فكره وطموحه، وأيضا هي أداة فنيّة يتمكن الشّاعر عبر توظيفها من خلق عالم جمالي يملؤه الخيال والإبداع، حيث ينتج عبرها قدرة فنيّة تفرض على المتلقّي التّأمل في المعنى وتتبعه، وقد وظفّ الطّرمّاح أساليب بيانيّة ليمكّن المتلقي من الاندماج مع نصّه، وأيضا ليُؤثّر على مشاعره وأفكاره.

أ. الاستعارة:

لجأ الشاعر إلى توظيف الاستعارة في هجائه من ذلك قوله:

فَلَــوْ كَـــانَ يَبْكِـــي القَبْرُ مِن لُؤْمِ حَشوِهِ بَكَــتْ مــن تَمِيــمٍ كُــلَّ يَــوْمٍ قُبورُهَا[1]

في عبارة "يبكي القبر" استعارة مكنية؛ حيث شبّه القبر وهو من الجماد بما هو حسّي له القدرة على الشعور والإحساس كالكائن الحيّ الذي يحزن ويبكي، لقد أعطى الشّاعر هذه القدرة الإنسانيّة للقبر الذي يبكي لما يحمله بداخله من جثث بني تميم، لأنهم لم يتّصفوا سوى بالخزي والعار وهم قوم لا خير فيهم، حتّى أن القبر يحزن ويستعرّ من وجودهم داخله، فحذف الشّاعر المشبّه به وهو الإنسان، وترك قرينة تدلّ عليه وهو الفعل "بكى". تتضح

[1] الطّرمّاح: الديوان، ص166.

جماليّة هذه الصورة في تشخيص القبر في قالب إنساني، وكذلك تقديم معنى مكثّف في تعبير موجز فيه مبالغة وتأكيد وإبانة.

ب. الكناية:

وفي الحديث عن نوع آخر من الصور البيانية عمد الشّاعر إلى استخدام الكناية وذلك لمّا قال:

فَلَــوْ أَنَّ يَرْبُوعًـــا يُزَقِّـــقُ مَسْكَنَـــهُ إِذَا نَهَلَـــتْ مِنْـــهُ تَمِيـــمٌ، وَعَلَّـــتِ
وَلَـــوْ أَنَّ بَرْغُوثـــا عَلَـــى ظَهْـــرِ قَمْلَةٍ يَكُـــرُّ عَلَـــى صَفَّـــيْ تَمِيـــمٍ لَوَلَّـــتِ
وَلَـــوْ جَمَعَـــتْ تَمِيـــمٌ جُمُوعَهَـــا عَلَـــى ذَرَّةٍ مَعْقُولَـــةٍ لَاسْتَقَلَّـــتِ
وَلَـــوْ أَنَّ أُمّ العَنْكَبـــوتِ بَنَـــتْ لـــهم مِظَلّتهـــا يَـــوْم النَّـــدى لأَكَنَّـــتِ[1]

في هذه الأبيات قدّم الطّرمّاح كناية عن صفتين هما: قلة عدد بني تميم وضعفهم، حيث أن البيت الأول والبيتين الأخيرين فيهم إشارة إلى قلة العدد، فالإناء الذي يصنع من جلد اليربوع يكفي كلّ أفراد القبيلة ليشربوا منه حتى الشبع، وهم إن اجتمعوا يوما فوق ظهر نملة كانت لتكفيهم جميعا وأيضا إن هطل المطر فإنّ العنكبوت قادرة على تحميهم جميعا بمظلّتها، وأما البيت الثاني فهو يحمل كناية عن صفة ضعف هذه القبيلة حيث إنّ برغوث واحد قادر على زرع الخوف والرعب في نفوس التميميّين، وإن كان الشّاعر في استخدامه لهذه الصور قد بلغ درجة كبيرة من المبالغة والتفريط في وصف مآخذ خصومه غير أنه تمكّن من خلق صور جمالية إبداعية لها قدرة على جذب تركيز المتلقين.

وأورد كناية عن صفة الضرب، وذلك في عبارة "من تكون به اليدان" حين قال:

شَقِـــيٌّ بَعْـــدَ عَبْـــدِ بَنِـــي حَـــرَامٍ وَجَـــدِّكَ مَـــنْ تَكُـــونُ بِـــهِ اليَـدَانِ[2]

[1] الطّرمّاح: الديوان، ص77 ـ 76. يزقّق بمعنى ينتزع جلده ويصنع به وعاء للشرب، ذرّة: نملة صغيرة.

[2] المصدر نفسه، ص300. بنو حرام: حي من تميم، وهم حرام بن سعد بن مالك بن سعد بن زيد بن مناة بن تميم.

ج. التشبيه:

وأمّا التّشبيه فهو الأسلوب الفنّي والوسيلة الإبداعيّة المسيطرة على مجموع الصّور البيانيّة في هجاء الطّرمّاح، فكثيرا ما لجأ إلى أخذ مظاهر موجودة في بيئته ومجتمعه واعتمد عليها في المماثلة بين شيئين، إذ لم تتجاوزه صوره المجازية حدود الفكر العربي القديم وما ينطوي عليه من أوضاع محيطة به، ومن التشبيهات التي وظّفها قوله:

وَكانَتْ تَمِيمٌ وَسْطَ قَحْطَانَ إِذْ سَمَتْ كَمَقْذُوفةٍ في البَحرِ لَيْلًا فَضَلّتِ[1]

لقبيلة تميم تاريخ مهين وواقع مشين، فكلّ ما تميّزت به هو الذلّ الذي لازمها على الدّوام، وأيضا الخوف ممن هم أقوى منها فخضعت لسلطتهم ونفوذهم، وقد قام الشّاعر بتشبيهها وهي وسط بني قحطان كالشّيء الذي يقذف به في البحر ليلا فيتيه ولا يعرف طريقا نحو الأمان، أو هي كالسّفينة الضالة في أعماق البحر تحملها الأمواج كلّ مرّة في جهة، وفي التشبيه هجاء لضعف بني تميم وأيضا فخر بقوة القحطانيين، استطاع الشّاعر بواسطته من تقريب المعنى إلى فكر المتلقي وجعله واضحا في دهنه.

يواصل الطّرمّاح تقديم تشبيهات لتميم ويحاول أن يجد في كل موقف صورا تتناسب معها، فقال:

وَإِنَّ تَمِيمًا وَافْتِخَارِهَا بِسَعْدِهَا بِمَا لا يُرَى مِنْهَا بِغَوْرٍ وَلَا نَجْدِ
كَأُمِّ حُبَيْنٍ، لَمْ يَرَ النَّاسُ غَيْرَهَا، وَغابَ حُبَيْنٌ حَيْثُ غَابَتْ بَنُو سَعْدِ[2]

لازالت بنو تميم تفخر بمآثر بني سعد وتعتز بانجازات أهلها العظيمة على الدّوام، غير أن الشّاعر والنّاس من أهل عصره لم يشهدوا شيئا من هذه المآثر أو أيّ إنجاز تستحق أن تُفخر به وتُمدح بفضله، فشبّه الطّرمّاح هذا الفخر الزائف بأم حبين وابنها، وهما من

[1] الطّرمّاح: الديوان، ص71.

[2] المصدر نفسه، ص137. النقد: جنس من الغنم الصغار.

الحيوانات الصغيرة، لا يرى البشر سوى أم حبين أمّا ابنها حبين فلا يُرى إطلاقا، كذلك فخر تميم بسعد لا يُرى منه سوى الكلام المزيف أما الفعل المجيد والعمل البطولي لهم فهو في الواقع غير موجود على الإطلاق.

وفي تشبيه آخر قال:

إِذَا دَعَـــا بِشِعَـــارِ الأَزْدِ نَفَّـــرَهُـــمْ كَمَـــا يَنْفُـــرُ صَـــوْتُ اللّيْـــثِ بِالنَّقَـــدِ[1]

يرى الشّاعر أن قبيلة تميم قد غدت ذليلة بسبب مثالبها وبفعل صفاتها الشنيعة، فتاريخها كلّه عار وخزيّ ولا يوجد فعل مشرف لها، وهي لشدّة ضعفها إذا سمعت شعار ونداء بني أزد ملأ الخوف قلب أهلها ونفوسهم، ثم إنّهم يفروا جميعا، وتميم في موقفها هذا تشبه الغنم الذي ينفر لدى سماعه زئير الأسد خوفا منه وهروبا من بطشه.

وقال كذلك:

أَتَهْجُـــو مَـــنْ رَوَى، جَزْعًـــا وَلُؤْمًـــا، كَسَاقِـــي اللَّيْـــلِ مِـــنْ كَـــدَرٍ وَصَافِي[2]

هنا شبّه الطّرمّاح ذلك الشخص الذي يهجو من يروي الشعر لا من يقوله بدافع الجزع واللؤم كالإنسان الذي يسقي ليلا، لا يدري إذ كان ما يسقيه صافي أم أنه عكر، كذلك هذا الشخص الهاجي لا يعلم ما إذ كان يقول صوابا أم مجرد أكاذيب.

لقد كان لهذه الصورة قيمة فنيّة إبداعيّة وجماليّة، فهي من جهة خلقت ترابط بين مختلف عناصر البيت الشعري، ومن جهة ثانية حققت انسجام وتلاحم بين شطري البيت. إنّ مختلف الصّور البلاغيّة التي بثّها الشاعر في أبياته الهجائية كانت دليل يشهد على متانة أسلوبه وروعة تصويره للمعاني، بالإضافة إلى أنّها منحته قوّة في التّعبير وقدرة على التّأثير.

[1] الطّرمّاح: الديوان، ص123.

[2] المصدر نفسه، ص198.

3.4 الأساليب الإنشائيّة والخبريّة:

تعدّدت الأساليب الإنشائيّة والخبريّة التي استخدمها الطّرمّاح بن حكيم الطّائي خلال نظمه لشعر الهجاء، حيث إنّها أوحت بحالته النفسيّة وبمواقفه الشّعوريّة وبتجاربه التي مرّ بها أمام خصومه وأعدائه، من بين هذه الأساليب النّداء والاستفهام والتعجب والتمني والنفي، فسعى بواسطتها إلى لفت انتباه المهجو بشكل خاص والمتلقين بصورة عامة.

أ. النداء:

لقد استعمل الشّاعر النّداء لمّا هجا خصومه في عديد من المواضع، منها في قوله:

يـــاضَـــبَّ، إنْ تَكْفُـــرِي أَيَّـــامَ نِعْمَتِنَـــا فَقَـــدْ كَفَـــرْتِ أَيـــادِي أَنْعُـــمٍ تُلَـــدِ[1]

وفي قوله:

فِيـــم تَقُـــولُ تَمِيـــمٌ؟ يَـــا ابْـــنَ قَيْنِـــهِمْ، وَقَـدْ صَدَقْتُ، وَمَـا إِنْ قُلْتُ عَـنْ فَنَـدِ[2]

قام الشّاعر في البيت الشّعري الأول بتوجيه حديثه إلى قبيلة ضبّة، مناديا إيّاها ليلفت انتباهها ويقدّم خطابا خاصا إليها، فقام بتذكيرها بأنها قد أنكرت فضل قبيلة طيّء ونعمتها عليها منذ التاريخ القديم، وهذا الأمر في نظره فعل معيب ومخزي، فكان يهدف من وراء هذا النداء تعيير ضبة بأنّها ناكرة لفضل ولجميل الآخرين عليها لذا فهي لا تستحق أن تنال مساعدة الآخرين لها. وأمّا في النموذج الثاني فقد خاطب الطّرمّاح شاعر بني تميم أي الفرزدق ناعتا إيّاه بابن القين بمعنى ابن الحدّاد، وفي هذا اللقب محاولة لتحقير الفرزدق وإذلاله، حيث في ندائه سعى إلى طرح سؤال ثم خصّ الفرزدق ليجيب عنه.

[1] الطّرمّاح: الديوان، ص125. تلد جمع تالد وهو القديم الموروث.

[2] المصدر نفسه، ص127.

ب. الاستفهام:

ومن أمثلة توظيف أسلوب الاستفهام قوله:

أَلَـمْ تَـرَ لُـؤْمَ يَـشْكُـرَ دُونَ بَـكْـرٍ أَقَـامَ كَمَـا أَقَـامَ الفَـرْقَـدَانِ[1]

طرح الطّرمّاح سؤال غير حقيقي فلا ينتظر جوابا منه، إذ يعلم بأنّ اللّؤم مغروس في نفوس بني يشكر كالنّجمان الدّائما الظّهور في السماء كذلك اللؤم لا يغادر أهل يشكر، وإنّما هو يوجّه سؤاله للمتلقّين ليؤكّد لهم حقيقة هذه القبيلة واتصافها باللّؤم والحقد.

وفي قوله:

أَلَـيْسَـتْ تَمِيـمٌ يَـوْمَ قَتْـلِ عَدَيِّـهَـا تَحَيَّـرَ أَعْمَاهَـا، وَتَـاهَ بَصِيـرُهَا[2]

فتميم حينما قُتل عدي بن أرطأة تحيّرت وضاع طريق الصواب عنها، لدرجة أنّها لم تجد سبيل الرشاد وطريق الحق، فقد كانت تستند إليه وتعوّل عليه في أمور كثيرة. ليضيف في الموضوع ذاته قوله:

فَسَـلْ تَمِيمَيْـكَ: هَـلْ لَاقَتْ لِـعَاجِمِهـا يَـوْمَ ابْـنِ أَرْطَـأَةِ إِذْ أَزْرَى بِهَـا الخَـوَرُ[3]

وقال:

فَأَيْـنَ تَمِيـمٌ يَـوْمَ تَخْطِـرُ بِالقَنَـا كَتَائِـبُ مِنَّـا أَضْعَنَـتْ وَأَحَلَّـتِ[4]

يحمل السّؤال هنا معنى هجائي لتميم، فالشّاعر يتساءل عن مكان هذه القبيلة والتي لم تظهر إلى الوجود لما كانت جيوش قومه تنهل بالرماح على كل عدوّ وتقضي على أي

[1] الطّرمّاح: الديوان، ص301. بكر: قبائل بكر بن وائل وبشكر فرع منها، الفرقدان: نجمان في السماء لا يغربان.
[2] المصدر نفسه، ص166.
[3] المصدر نفسه، ص168. العجم بمعنى العض بالأضراس ويريد عض الحرب وفيه كناية عن شدّتها.
[4] المصدر نفسه، ص74.

خطر يهددها، وهو هنا لا يبحث عن إجابة للسّؤال فقد كان يهدف به إلى تبيين ضعف تميم وجبنها يوم الحروب.

ج. التمني:

وفي استخدامه لأسلوب التمني قال:

لَقُلْـــتَ: أَلَا يـــا لَيْـــتَ سَعْـــدًا وَمَالِكًـــا قَـــذًى بَاسـتِ شَيْطَـــانٍ أَصَـــمَّ رَجِيـــمِ[1]

لا يتمنّى الطّرمّاح وقوع الأمر برغبة منه بل يعبّر عن رغبة بني تميم، التي تتمنّى يوم لقائها بقبيلته أن يكون كل من فرعيها سعد ومالك مجرد وسخ أو قذى في عيني الشيطان الرجيم، وذلك خوفا من قوة بني قحطان وبطشهم، وقد ورد هذا التمنّي على لسان الشّاعر ليجسّد ما تأمله تميم، وليضعها أيضا في موضع الأذلّاء الضعفاء.

د. التعجّب:

وقال موظفّا أسلوب التعجّب:

وَيَـــا عَجَبَـــا لِيَشْكُـــرَ إِذْ أَغَـــدَّتْ لِنَـــصْـــرِهِمُ رُوَاةُ ابْنَـــيْ دُخَـــانِ[2]

كان توظيف الطّرمّاح لحرف النّداء مجازيا لا حقيقيا ليلحقه بصيغة التعجب "عجبا"، وهو يتعجب ويستغرب من بني يشكر حين غزا "ملك من ملك اليمن بني غني وبني باهلة غير أنّ هذين الأخيرين لمّا علما أن الملك وأصحابه قد دخلوا كهفا أخذوا باب الكهف ودخنوا عليهم حتى مات من بداخله، فأطلق عليهما ابني دخان"[3]، وقد أسرعت للمساعدة والعون، وهو يعجب من هذا الفعل.

---

[1] الطّرمّاح: الديوان، ص259.

[2] المصدر نفسه، ص300.

[3] المصدر نفسه، ص300.

هـ. النفي:

وقال حين لجأ إلى أسلوب النّفي:

مَـــا كَثُـــــرَتْ عُلْيَـــا تَمِيـــــمٍ فَتُتَّقَـــى وَلَا طَـــابَ مِـــنْ سُفْلَـــى تَمِيـــمٍ قَلِيلُهَا[1]

استخدم الطّرمّاح أسلوب النفي للتعبير عن أفكاره ومشاعره، وهدف إلى تمثيلها بشكل واضح حتى يستوعبها المتلقي ويفهم مغزاها، وسعى إلى إثبات وجهة نظره، فنفى عن أعدائه كلّ المآثر والمكارم، وألحق بهم مختلف الصفات المعيبة والمخزية، وفي هذا البيت نفى عن تميم المجد والعلا كما نفا عنها كثرة العدد، وهذه الصّفات عدّها العرب عيبا وجعلها الشعراء موضوع للتّهاجي فيما بينهم.

وقال أيضا:

لَيْـــسَ ابْـــنُ يَـشْكُـــرَ مُـعْتَـدًّا بِـمِثْـلِـهِمْ حَتَّـى يُـرقَّـى إِلَى الجَـوْزَاءِ فِـي سَبَبِ[2]

يواصل الشّاعر تصوير أعدائه في صور مكروهة منبوذة فيها كل ما هو مخالف لعادات العرب، فنفى عنهم محاسن الأخلاق وألصق بهم قبيحها وسيّئها، فقال:

لاَ يُـكْثِـرُونَ وَإِنْ طَـالَـتْ حَيَـاتُـهُمُ، وَلَا تَـبِـيـدُ مَـخَـازِيـهِـم إِذَا بَـادُوا[3]

مضى الشّاعر في استخدام الصيغ الإنشائيّة والأساليب الخبريّة ونوّع فيهما، فكان لهما الدّور الفعّال في لفت انتباه السامع والتأثير على عواطفه، وهو بتنويعه فيهما هدف إلى بث نوع من الحياة والروح في نصوصه، فلم تكن مجرد نظم خالي من الإبداع، بل من يطلع عليها يستشعر أهميّتها ويعيش مع الشّاعر تجاربه وأفكاره ويكشف عن مبادئه وطرق تفكيره وأيضا يعرف طريقة تعامله مع خصومه وكيف قد عبّر عن مشاعره نحوهم.

---

[1] الطّرمّاح: الديوان، ص226.

[2] المصدر نفسه، ص55.

[3] المصدر نفسه، ص129.

و. الشرط:

يعدّ الشّرط الأسلوب الغالب على باقي الأساليب الكلامية التي اعتمد عليها الشاعر في نظم قصائده الهجائيّة، حيث أنّه ساهم في خلق اتساق بين عناصر وأجزاء نظم الشّاعر، ومن أمثلته قوله:

أَنَّى تَعَاطَى يَشْكُرٌ مَجْدَ طَيِّءٍ وَيَشْكُرُ أَخْسَاسٌ صَغِيرٌ أَرُومُهَا[1]

استخدم الطّرمّاح هنا أداة الشرط "أنّى" التي وصلت بين جملة فعل الشرط "تعاطى يشكر مجد طيّء"، وجوابه "ويشكر أخساس صغير أرومها"، وقد كان لهذا الشرط وظيفة بارزة في ربط الألفاظ والأفكار، كما أنّه خلق اتساق جوهري بين المعاني ودلالاتها، وساعد في إنتاج نوع من الانسجام بينهما، لتصبح بعد ذلك الجملتين بمثابة جملة واحدة، فيشكر التي تزعم أن لها مجد كمجد طيّء هي في الواقع على خلاف ذلك، فنسبها ذليل وضيع.

وقال أيضا:

أَفَخْرًا تَمِيمِيًّا إِذَا فِتْنَةٌ خَبَتْ وَلُؤْمًا إِذَا مَا المَشْرِفِيَّةُ سُلَّتِ[2]

يتّضح أنّ الشّاعر قد قدّم جملتي جواب الشّرط على فعلهما في كل من شطري البيتين، مختصرا إيّاهما في لفظتين الأولى انحصرت في كلمة "فخرا" والثانية تمثلت في كلمة "لؤما"، فقدّم التركيبين في شكل مختصر ليتجنب الإطناب والتوسّع في الكلام، ولم يكثر من التعبير ليبعد على المتلقي الرتابة والملل الذي ينتج بفعل الإطالة.

وقال:

لَوْلَا قُرَيْشٌ وَحَقٌّ فِي الكِتَابِ لَهَا وَأَنَّ طَاعَتَهُمْ تَهْدِي إِلَى الرَّشَدِ[3]

---

[1] الطّرمّاح: الديوان، ص247. أرومها بمعنى أصلها.

[2] المصدر نفسه، ص73.

[3] المصدر نفسه، ص128.

وقال:

وَإِنْ تَـهْـجُ عُـلْيَـا طَـيِّءٍ تَـلْـقَ طَيِّئًـا إِلَيْهَـا تَـنَـاهَـى نَـعْتُ كُـلِّ كَـرِيـمِ[1]

لقد تعدّدت أساليب اللغة الكلاميّة التي لاقت عناية الدّارسين، واعتمد عليها الأدباء والشّعراء في أدبهم بغرض التّنفيس عن مكبوتاتهم وبهدف تمثيل أفكارهم للمتلقّين بصورة أكثر تأثيرا، والطّرمّاح بن حكيم الطائي من بين أهم شعراء العصر الأموي ومن بين أبرز الفنّانين الذين أكثروا من توظيف هذه الأساليب في نظمهم وعلى الأخص في غرض الهجاء، وقد أجاد وضعها في كلامه فلم يختل ولم يفسد بالرغم من كثرتها، ولهذا قد اعتبر من أشهر الشّعراء الأمويين الهجائين.

4.4 التّكرار:

يعدّ التّكرار ظاهرة فنية بارزة في الشّعر العربي القديم والحديث، وقد أُولي عناية فائقة من قبل الشّعراء والنقّاد ودارسي الأدب واللغة، ذلك لأنه أحد أهم عناصر أسلوب الشّعر، والشّاعر الطّرمّاح من بين المبدعين الذين وظّفوه بكثرة في أشعارهم بمختلف أنماطه وصوره، سواء أكان تكرار للحروف أو للكلمات أو للعبارات أو للمعاني. حيث إنه لتكرار الحرف قدرة على خلق تلاؤم بين اللّفظ والمعنى، وأيضا يستطيع أن يشكّل وحدة وتماسك بين أبيات القصيدة الشعريّة، فيخلق إيقاع وموسيقي داخلية تلفت انتباه المتلقي، غير أنّ هذا النوع من التّكرار لا يتوقّف عند مجرّد هذه الوظيفة بل يتعدّاها ليحمل دلالات متنوعة لها علاقة بالمعنى الذي يريد الشّاعر إيصاله، ومن بين الحروف المتكررة في هجاء الطّرمّاح حرف القاف في قوله:

وَقَـــدْ أَلْجَـأَتْـكَ الأَزْدُ يَـــوْمَ لَـقِيتَـهَـــا إِلَـــى حَسَـــبٍ يَـابْـنَ القُـيُـــونِ لَـئِيـــمِ
فَـــإِنَّ تَـمِيـمِيًّـا يُـسَـامِـــــي بِـقَـوْمِـــــهِ جَمَـاجِـمَ مِـن قَـحْطَـانَ غَيْـرُ حَـلِيـمِ

[1] الطّرمّاح: الديوان، ص257.

وَلَـــوْ نَـفَـحَـتْكُـم رِيـحُ قَـحْـطَـانَ نَـفْـحَـةً بِـنَـكْـبَـاءَ عَـــنْ وَجْـــهِ الرِّيَـاحِ عَـقِـيـمِ
لَقُـلْـــتَ: أَلَا يَـــا لَيْـتَ سَعْـدًا وَمَـالِكًـا قَـذَى بـاسـت شَـيْـطَـانٍ أَصَـــمَّ رَجِـيـــمِ
أَغَصَّـتْ عَـلَـيْـكَ الشَّـامَ قـحْـطَـانُ بِـالقَـنَـا بِـأَقْـطَـارِهَـــا عَـــنْ ظَـاعِـــنٍ وَمُـقِـيـمِ[1]

لقد تكرر حرف القاف في المقطوعة الشّعريّة ثلاثة عشر مرة، والقاف من الحروف الشّديدة، عبّر به الشّاعر عن أحداث قويّة اتّضح عبر الصورة التي قدمها وهو يتحدث عن الفرزدق ويهجو قومه بالضعف والجبن وعدم تحليهم بالشجاعة التي كانت تفرضها طبيعة الحياة العربية القديمة، ومقابل هذا فخر بقوة قومه وببسالتهم، فهم أشداء لهم كل الخصال القوية والمجيدة.

أمّا من أمثلة تكرار حروف المعاني قوله:

وَمَـــا خُـلِـقَـتْ تَـيْـمٌ وَزَيْـــدُ مَـنَـــاتِـــهَـا وَضَـبَّـــةُ إِلَّا بَـعْـدَ خَـلْـــقِ القَـبَـائِـلِ[2]

وقوله:

وَمَـــا كَـثُـرَتْ عُـلْـيَـا تَـمِـيـم فَـتُـتّـقَـــى وَلَا طَـــابَ مِـــنْ سُـــفْـلَـى تَمِيم قَلِيلُهَا[3]

إنّ تكرار حرف الواو في المثال الأوّل قد دلّ على خاصيّة الاشتراك بين تيم وزيد وضبة في مجموع من الصفات منها الوضاعة والذل وقلة العدد، وأما في المثال الثانّي فحمل تكرار الشّاعر لهذا الحرف معنى الإضافة، فقبيلة تميم بعيدة كل البعد عن سمات العلا والرفعة في نظر الطّرمّاح ومن يقف في صفه بالإضافة إلى أنها في أدنى المراتب وأقل القبائل شأنا ومكانة.

[1] الطّرمّاح: الديوان، ص259. جماجم من قحطان بمعنى قبائل منها.
[2] المصدر نفسه، ص205.
[3] المصدر نفسه، ص226.

أمّا تكرار الكلمات فهو أشهر الأنواع وأكثرها تداولا، له أهميّة وقيمة تأثيريّة أكثر من تلك التي ترد عن تكرار الحروف، ومن نماذجه تكرار الطّرمّاح أسماء القبائل ليظهر حقده نحوها وكرهه لها ولينزل من قيمتها، ومن ذلك تكراره لاسم يشكر في قوله:

لَيْـــــسَ ابْـــنُ يَشْكُـــرَ مُعْتَـــدًّا بِمِثْلِـــهِم حَتَّـــى يُرَقَّـــى إِلَـــى الجَـوْزَاءِ فِـــي سَبَـبِ
طَـابَـــتْ رَبِيعَـــةُ أَعْلَاهَـــا وَأَسْفَلَهَـــا وَيَشْكُـــرُ اللُّـــؤْمِ لَـــمْ تَكْثُـــرْ وَلَـمْ تَطِبِ[1]

وقال لمّا كرر اسم قبيلة تميم:

فَأَيْـــنَ تَمِيـــمُ يَـــوْمَ تَخْطِـــرُ بِـــالقَنَـــا كَتَائِـــــبُ مِنَّـــا أَضْعَنَـــتْ وَأَحَلَّـــتِ
تَمِيـــمٌ بِطُـــرُقِ اللُّـــؤْمِ أَهْـدَى مِـنَ القَطَـا وَلَـــوْ سَلَكَـــتْ طُـــرُقَ المَكَـــارِمِ ظَـلَّـتِ[2]

وأمّا حين كرّر كلمة الحرب فقد قال:

حَلَفْـــتُ لَأُحْدِثَـــنَّ العَـــامَ حَـــرْبٌ مُشَمِّـــرَةٌ، كَنَـــاصِيَّـــةِ الحِصَـــانِ
لِـــقَوْمٍ ظَـــاهَرُوا، وَالحَـــرْبُ عَنْـــهُمْ كَهَـــامُ الضِّـــرْسِ ضَارِبَـــةُ الجِـرَانِ[3]

وقال:

تَمِيـــمٌ تَمَنَّـــى الحَـــرْبَ مـــا لَـــمْ تُلَاقِهـا، وَهُـــمْ قُصفُ العِيدَانِ فِي الحَرْبِ خُورُهَا
أَلَسْتُمْ بَنِـــي الحَـــرْبِ العَـــوانِ، زَعَمْتُـــمُ، وَمَـــنْ غَيْـرُكُـــمْ فِتْيَانُهَـــا وَصُقُورُهَـــا[4]

لقد كانت الحرب من المظاهر المسيطرة على الحياة العربيّة قديما، ومن أهم السبل المتبعة بين الأعداء والخصوم وذلك من أجل إثبات قوتهم وتفوقهم، فكثيرا ما دخلت القبائل الحروب ولم تخرج منها إلّا بعد مرور عقود من الزّمن، والشّاعر عمد إلى تكرارها في كل بيت ليؤكّد على شجاعته وقوتّه في مواجهة أعدائه، فهو يتوعّدهم في البيتين الأولين بحرب

[1] الطّرمّاح: الديوان، ص55.
[2] المصدر نفسه، ص74.
[3] المصدر نفسه، ص300. كهام الضرس بمعنى ضرسها لا يقطع.
[4] المصدر نفسه، ص166. خورها من الخور، خوّار وهو الضعيف، الحرب العوان بمعنى الشّديدة.

شديدة، غير أنّه لا يقصد بها القتال في ساحة المعركة بالسيوف والرماح بل أشار إلى حرب هجائيّة مع شعراء أعدائه. وفي البيتين اللاحقين كرر لفظة "الحرب" ثلاث مرات دون أن يغير من بنائها، لتتضح فكرة الشّاعر أكثر فهو يحاول أن يثبت ضعف وجبن تميم التي يدعي قومها البسالة والإقدام في الحروب، غير أنه متى وقعت حرب كانت تميم أولى القبائل المنهزمة.

وفي تكرار آخر قال:

وَمَـــنْ يَـــكُ يَهْـدِي أَوْ يُظِـــلُّ إِتِّبَـاعُـــهُ فَـــإِنَّ تَمِيمًـــا لَا تُظِـــلُّ وَلَا تَهْـدِي[1]

كرّر الشّاعر فعلي يهدي ويظلّ، وإن جاءا في الشطر الأوّل مثبتين فقد نفاهما في الشّطر الثاني وغير من ترتيبهما، فالإنسان الذي يريد أن يتبع طرق الهدى أو طرق الظلال فإنه لن يجد مراده عند تميم، إذ أنّها لا تمنح أهل قبيلتها أو غيرهم الهدى، لقد حمل التّكرار وظيفة تفصيليّة تأكيديّة ليقنع المتلقي ويؤثّر في اتجاهه، ويكون تركيزه مجمل في الألفاظ المكررة فتصبح بمثابة الكلمات المفتاحية في البيت الشعري.

وأمّا تكرار العبارة فهي ظاهرة نادرة في هجاء الطّرمّاح، توجد في مواضع قليلة، منها في قوله:

فَخَـــرْتَ بِيَـــوْمِ العَقْـــرِ شَرْقَـــيَّ بَابِـــلٍ وَقَـــدْ جَبُنَـــتْ فِيـــهِ تَمِيـــمٌ وَقَلَّـــتِ

فَخَـــرْتَ بِيَـــوْمٍ لَـــمْ يَكُـــنْ لَـــكَ فَخْـــرُهُ وَقَـــدْ نَهِلَـــتْ مِنْـــكَ الرِّمَـــاحُ وَعَلَّـــتِ[2]

يتّضح التّكرار في بداية كل بيت في عبارة "فخرت بيوم"، ليؤدّي وظيفة الإطناب والاستطراد، فحمل فائدة من حيث المبالغة والتّقرير والتّأكيد.

[1] الطّرمّاح: الديوان، ص133.

[2] المصدر نفسه، ص73 ـ 74.

كما سبق القول قد تمكّن الطّرمّاح من أن يرتقي بفن هجائه إلى درجات متقدّمة مع مجموع الشعراء المكثرين والمتميزين ليس في العصر الأموي فقط بل في سائر العصور الأدبية، حيث أنّ الشّاعر لم يتوقف في حدود استعمال نوع معيّن من الوسائل الفنية الكلاميّة فقط بل نوّع فيها وأدخل عليها عناصر جماليّة، وإن كانت لم تتعدى مستوى التفكير العربي البسيط والشائع آنذاك، غير أنّها ساهمت في جعل شعره الهجائي جزل وفصيح فيه بصمة من الإبداع والتميّز.

الخاتمـــــــة

خاتمة:

وفي خاتمة هذه الدّراسة يمكن حوصلة جملة من النّتائج أهمّها مايلي:

- الشّعر شكل من أشكال التّعبير الإنساني، يجسّد الشّاعر عبره تجاربه الشعرية والشعورية والمواقف الحياتية، وأيضا يعكس بواسطته طرق التفكير، ويتم به التّرجمة عن الواقع المعيش في كل عصر، وهو بذلك ضرورة فنّية في حياة البشر.
- فنّ الهجاء من الوسائل الشّعرية الفنّيّة المعتمدة للدّفاع عن النفس والنسب وعن الأفكار والقضايا التي يتبنّاها المبدع، وأيضا هو أداة للحط من مكانة الخصوم والأعداء.
- استخدم الشّعراء الهجاء كسلاح ضدّ خصوم قبائلهم فكانت لهم مكانة راقية وهامة شأنهم في هذا شأن سادة أقوامهم، وهذا يرجع إلى دور الهجاء في تحطيم نفسيات الأعداء.
- تعدّدت أنواع الهجاء حسب الموضوعات التي يتناولها الشاعر في قصائده، منها الهجاء الأخلاقي، الديني، السّياسي...
- ظل غرض الهجاء في الفترة الأمويّة مقلّدا ما كان عليه في العصر الجاهلي، فقد انطبع بسماته وخصائصه من ناحية الموضوعات والأساليب، وإن وقعت بعض التّغيرات البسيطة فيه، إذ لكلّ زمن طابعه الخاص وبصمته المتميّزة.
- البيئة الأمويّة بمختلف ظروفها كانت سببا بارزا في بث الحياة من جديد في غرض الهجاء فساهمت في إعادة ظهوره بصورة أقوى ممّا كان عليها في العصور السّابقة.
- العصر الأموي عصر ذهبي للهجاء، أين اعتبرت فيه العصبيّة القبليّة والصراعات السياسية والاجتماعية الحافز والعامل المساعد في بروزه وتطوره.
- الطّرمّاح بن حكيم من فحول شعراء العصر الأموي، قد تمتّع خلال نظمه لقصائده الهجائيّة بأسلوب رصين متين وبمقدرة محكمة أكّدت على شاعريته.

- ورد الهجاء عند الشّاعر مرتبط بغرض الفخر ولصيق به في غالبيّة الأحيان.
- اعتبر الهجاء الأخلاقي بمختلف مظاهره من جبن وضعف ولؤم وطمع من أبرز الموضوعات التي تطرّق إليها الطّرمّاح أثناء هجاء خصومه، بالإضافة إلى موضوعات أخرى منها السياسيّة وفيها أخزى خصومه بفشلهم في وقائع وفخر بالاتّجاه السياسي الذي يسانده، وفي الموضوع الدّيني عيّر من يعاديهم بالكفر والنّفاق في إسلامهم، أمّا في هجاء الخِلقَة فلم يلجأ إليه إلّا في بيت واحد ممّا يثبت خارجيّته وعدم مساسه بما هو من خَلقِ الله عزّ وجلّ، وكغيره من شعراء الهجاء لم يغفل عن ذكر نساء الأعداء والتشهير بهن بقبيح الصفات.
- وظف الشاعر الصّور البيانيّة والجمالية على اختلاف أنواعها من استعارة وتشبيه وكناية، فكان لها دور في إثبات سعة خياله الشّعري وأيضا ساعدت على تقويّة هجائه من النّاحيّة الفنيّة الإبداعيّة.
- تنوّعت الأساليب الكلاميّة التي استعملها الشّاعر أثناء نظمه لأبيات الهجاء من نداء وتعجب واستفهام ونفي وشرط، فأضحت نصوصه حيّة لها مقدرة على جذب انتباه المتلقّين والتّأثير على عقولهم وعواطفهم.
- برع الطّرمّاح في توظيف ألفاظه وفي نسج عباراته فجاءت تراكيبه متقنة ولغته انفعالية تعبّر عن عاطفة صادقة، واستطاع أن يجعل من هجائه متداولا بين النّاس وذلك بفضل بساطته وجزالته وبُعده عن التعقيد والغموض.
- صوّر الشّاعر الطّرمّاح بن حكيم بفضل مقطوعاته وقصائده الهجائيّة جزءا من واقع الأمويّين ومن الأوضاع التي كانت تسيطر على الفكر العربي آنذاك، غير أنّه كثيرا ما كان يلجأ إلى المبالغة في التّصوير واعتمد على تكرار الأفكار في كثير من المواضع.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

قائمة المصادر:

1) ابن رشيق القيرواني، أبو علي الحسن: العمدة في محاسن الشّعر وآدابه، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، ط1، ج2، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1934م.
2) ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله: الشّعر والشّعراء، تح: أحمد محمد شاكر، ط2، ج2، دار المعارف، القاهرة، مصر،1967م.
3) أبو زيد القرشي، محمد بن أبي الخطّاب: جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، تح: علي محمد البجاوي، د ط، نهضة مصر، مصر، 1981م.
4) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم: لسان العرب، د ط، م1، 2، 15، دار صادر، بيروت، لبنان، د ت.
5) أبو هلال العسكري: الصّناعتين . الكتابة والشعر. ، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، مصر، 1952م.
6) الأعشى، ميمون بن قيس: الديوان، شرح: محمد حسين، د ط، مكتبة الآداب بالجماميزت، المطبعة النموذجيّة، د ت.
7) الحُطيئة: الديوان، رواية وشرح: ابن السّكيت، دراسة: مفيد محمد قميحة، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1993م.
8) الدمشقي، الحافظ ابن كثير: البداية والنهاية، ط8، ج9، مكتبة المعارف، بيروت، لبنان، 1990م.
9) الذهبي، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تح: عمر عبد السلام تدمري، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1990م.

10) الزّبيدي، أبي بكر محمّد بن الحسن: طبقات النحويين واللغويين، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط2، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1984م.

11) الزمخشري، أبي القاسم جار الله محمود بن عمر: أساس البلاغة، تح: محمّد باسل عيون السُّود، ط1، ج2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1998م.

12) الطّرمّاح، بن حكيم بن قيس الطّائي: الديوان، تح: عِزّة حسن، ط2، دار الشرق العربي، بيروت، لبنان، 1994م.

13) الفرزدق: الديوان، شرح: علي فاعور، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1987م.

14) الفيروزآبادي، مجد الدّين محمّد بن يعقوب: القاموس المحيط، مراجعة: أنس محمد الشامي وزكريا جابر أحمد، د ط، دار الحديث، القاهرة، مصر، 2008م.

15) القاضي الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، ط1، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، 2006م.

16) المتلمّس الضبعي: الديوان، رواية: الأثرم وأبي عبيدة عن الأصمعي، تح: حسن كامل الصيرفي، د ط، الشركة المصريّة للطباعة والنشر، مصر، 1970م.

17) المرزباني، أبو عبد الله محمّد بن عِمران بن موسى: الموشّح في مآخذ العلماء على الشعراء، تح: محمد حسين شمس الدّين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1995م.

18) جرير: الديوان، د ط، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1986م.

19) حسّان بن ثابت: الديوان، شرح: عبد أ.مهنّا، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1994م.

20) طرفة بن العبد: ديوانه، شرح: الأَعْلَمِ الشَّنْتَمري، تح: دريّة الخطيب ولطفي الصقّال، ط2، المؤسّسة العربيّة، بيروت، لبنان، 2000م.

21) عبد الله بن رواحة: الديوان، ودراسة في سيرته وشعره، تح: وليد قصاب، ط1، دار العلوم، الرياض، السّعوديّة، 1981م.

قائمة المراجع:

1) ابتسام مرهون الصفار: الأمالي في الأدب الإسلامي، د ط، دار المناهج، عمان، الأردن، 2006م.

2) ابراهيم زعرور وعلي أحمد: تاريخ العصر الأموي السياسي والحضاري، د ط، منشورات جامعة دمشق، دمشق، سوريا، 1995م/1996م.

3) أحمد الشايب: الأسلوب، دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية، ط8، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، 1991م.

4) ـــــــــــ: تاريخ النّقائض في الشّعر العربي، ط2، مكتبة النّهضة المصريّة، القاهرة، مصر، 1954م.

5) أحمد أمين: فجر الإسلام، د ط، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، 2012م، ص301.

6) أحمد حسن الزيات: تاريخ الأدب العربي، د ط، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، مصر، د ت.

7) أحمد حسن الزيات وآخرون: المعجم الوسيط، ط4، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، مصر، 2004م.

8) أحمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة، ط1، م1، عالم الكتب، القاهرة، مصر، 2008م.

9) إيليا حاوي: شرح ديوان الفرزدق، ط1، ج1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1983م.

10) بثينة بن حسين: الدولة الأموية ومقوّماتها الإيديولوجيّة والاجتماعيّة، ط1، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سوسة، تونس، 1997م.

11) جبّور عبد النّور: المعجم الأدبي، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1979م.

12) جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، د ط، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، 2012م.

13) حسن عبد الجليل يوسف: الأدب الجاهلي، قضايا، وفنون، ونصوص، ط1، مؤسسة المختار للنّشر والتّوزيع، القاهرة، مصر، 2001م.

14) حنا الفاخوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي القديم، ط1، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1986م.

15) خليل مردم بك: الشّعراء الشاميّون، د ط، دار صادر، بيروت، لبنان، 1959م.

16) ركان الصّدفي: ابن الرّومي الشّاعر المجدد، د ط، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، سوريا، 2012م.

17) رياض عيسى: الحزبية السياسية منذ قيام الإسلام حتى سقوط الدّولة الأموية، تقديم: سهيل زكّار، دمشق، سوريا، 1992م.

18) سامي مكي العاني: دراسات في الأدب الإسلامي، د ط، مطبعة المعارف، بغداد، العراق، 1968م.

19) ـــــــــــــــ: الإسلام والشعر، د ط، عالم المعرفة، الكويت، 1996م.

20) سراج الدين محمد: الهجاء في الشعر العربي، د ط، موسوعة المبدعون، دار الراتب الجامعيّة، بيروت، لبنان، د ت.

21) شوقي ضيف: التطور والتجديد في الشّعر الأموي، ط6، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1952م.

22) ـــــــــــــــ: تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي، ط7، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1976م.

23) صالح طهبوب: موسوعة التاريخ الإسلامي، العصر الأموي، د ط، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، عمان، 2009م.

24) عبد الشافي محمد عبد اللطيف: العالم الإسلامي في العصر الأموي، دراسة سياسية، ط1، دار السلام للطّباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، مصر، 2008م.

25) عبد العزيز بن محمد الخويطر: الهجاء من الجاهلية حتى نهاية العصر الأموي نظرة في طبيعة الفن وتراوحه بين القبلية والإسلام والسياسة، كلية اللغة العربية، قسم الأدب، 1431هـ.

26) علي محمد الصّلّابي: الدولة الأمويّة، عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، ط2، م1، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 2008م.

27) عمر فرّوخ: تاريخ الأدب العربي القديم من مطلع الجاهليّة إلى سقوط الدّولة الأمويّة، ط4، ج1، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1981م.

28) فالح نصيف الحجيّة الكيلاني: موسوعة شعراء العربية، شعراء العصر الأموي، في جزأين، م3، د ت.

29) فوزي السيد عبد ربه عيد: المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان والتبيين، د ط، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، 2005م.

30) فوزي عيسى: الهجاء في الأدب الأندلسي، ط1، دار الوفاء، الإسكندرية، مصر، 2007م.

31) لطيفة البكاي: حركة الخوارج نشأتها وتطورها إلى نهاية العهد الأموي، ط1، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 2001م.

32) محمد أبو زهرة: الخطابة، أصولها، تاريخها في أزهر عصورها عند العرب، ط2، دار الفكر العربي، الكويت، 1980م.

33) محمد التونجي: المعجم المفصل في الأدب، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1999م.

34) محمد حسين: الهجاء والهجّاؤون في الجاهلية، مكتبة الآداب بالجماميزت، د ط، الإسكندرية، مصر، 1947م.

35) محمد سامي الدّهان: فنون الأدب العربي، الفن الغنائي، الهجاء، ط2، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1982م.

36) محمد عبد المنعم خفاجي: الأدب العربي وتاريخه في العصرين الأموي والعباسي، د ط، القسم الأول والقسم الثاني، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1990م.

37) محمود شاكر، التاريخ الإسلامي، العصر الأموي، ط7، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2000م.

38) محي الدين أبو شقرا: مدخل إلى سوسيولوجيا الأدب العربي، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2005.

قائمة المقالات:

1) جمال طالبي قره قشلاقي وعبد الغني ايرواني زاده ونصر الله شاملي: "السّخريّة السياسيّة في شعر دعبل الخزاعي"، مجلّة الجمعيّة العلميّة الإيرانيّة للّغة العربيّة وآدابها، عدد25، 2012م.

2) جميل بدوي حمد الزهري وهادي سدخ زغير العزاوي: "الهجاء بالمرأة في نقائض جرير والفرزدق"، مجلّة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، عدد1، مجلد8، 2009م.

3) رحيم حلو محمّد: "مجالس الشّعر والغناء عند الولاة والعمال العرب خلال العصر الأموي"، مجلّة ميسان للدراسات الأكاديميّة، عدد15، مجلد8، 2009م.

4) علي حاجى خانى: "الأسلوب والأسلوبية وعناصر الأسلوب الأدبي من منظور القرآن الكريم"، مجلّة فصلية إضاءات نقدية، عدد8، كانون الأول 2012م.

5) يوسف محمّد أبكر أحمد ويوسف محمد توتو محمد علي: "خصائص شعر الخوارج"، مجلة جيل الدراسات الأدبيّة والفكريّة، لبنان، عدد49، فبراير2019م.

قائمة الرّسائل الجامعية:

1) ثريا حافظ عرفه: الحياة الاقتصادية في بلاد الشام في العصر الأموي، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، السعودية، 1989م.

الملخّـــــص

ملخص اللغة العربية:

مع بداية العصر الأموي شهد الأدب تطوّرا، فاتّضحت خصائص الشّعر وتجلّت سماته وتطوّرت أغراضه، والهجاء هو الفن الذي نال النّصيب الأوفر من الازدهار بفعل مختلف العوامل السّياسيّة والظّروف الاجتماعية والفكريّة ليبلغ قمّته وذروته، كما ساعد على نشاط حركته نبوغ شعراء كُثر أبدعوا في نظمه ومنهم الشّاعر الهجّاء الطّرمّاح بن حكيم، هذا الأخير عُدّ من بين أهجى شعراء العرب ذلك أنّ هجاؤه جاء مؤلما موجعا فيه مبالغات كثيرة في وصف الخصوم والأعداء، فهدف عبره إلى ذكر عيوب ومساوئ خصومه والتذكير الدّائم بمخازيهم مركّزا على الجوانب الأخلاقيّة والدينيّة والسياسيّة بمختلف موضوعاتها، وقد لجأ إلى التّنويع في تراكيبه وأيضا عمل على الإبداع في أسلوبه فورد في صورة فنّية بسيطة جزلة، وإن كان قد اعتمد على التكرار في مواضع عدّة فهو يرجع إلى رغبة منه في تأصيل هذه السّمات السيئة في نفوس أعدائه وجعلها حقيقة مطلقة فيهم.

وقد هدفت هذه الدّراسة إلى إبراز الأساليب والطّرق التي اتّبعها الشّاعر في نظم قصائده ومقطوعاته الهجائيّة، وأيضا سعت إلى الوقوف على الموضوعات التي تطرّق إليها خلال حديثه عن خصومه.

الكلمات المفتاحيّة: الهجاء ـ العصر الأموي ـ الطّرمّاح بن حكيم ـ الموضوعات ـ الأساليب.

Résumé:

Au début de l'ère omeyyade la littérature s'est développée, les caractéristiques de la poésie sont devenues claires, ses caractéristiques se sont manifestées et ses buts ont évolué. la satire a été l'art qui a gagné le plus grand bénéfice de la prospérité en raison de divers facteurs politiques et les circonstances sociales et intellectuelles qu'il atteindre son apogée, en plus de tout ça l'activité de son mouvement est aide par la création de nombreux poètes. L'un d'eux est connu par le nom de "EL-TEREMAH BEN HAKIM" Ce dernier est un des poètes arabes les plus agités a l'époque omeyyade, parce que sa satire est venu douloureusement avec de nombreuses exagérations dans la description des leur opposants et ennemis, le but de cet poète est mentionner les défauts de ses adversaires, en se concentrant sur les aspects moraux, religieux et politique de divers sujets. Il a eu recours à la diversité dans ses compositions et a également travaillé sur la créativité de son style dans une forme d'art simple et brève, bien qu'il ait compté sur la répétition dans de nombreux endroits et emplacement, en raison de son désir d'enraciner ces mauvais qualités dans l'âme de ses ennemis et en faire une réalité absolue en eux.

Cette étude visait à mettre en évidence les méthodes suivies par le poète dans ses poèmes et dans ses pièces satiriques, et a également cherché à identifier les sujets qu'il a abordés tout en parlant de ses adversaires.

Mots-clés: la satire - l'époque omeyyade - EL-TEREMAH BEN HAKIM - les sujets - les méthodes.

Summary:

At the beginning of the Umayyad era, the literally has been flourished, the poetry characteristics became obvious, as reflected its features and evolved its objectives. Satire is the art that has been flourished that most because of many political, social factors and ideological circumenstances that help to reach its peack as well as the appearance of many poets who were creative in poetry to activate its movement one of them is called "EL-TEREMAH BEN HAKIM". This last is considered as one of the most Arabic satirist poets that's because of his satirist was painful, hurtful and full of exaggeration against his enemies and opponents through it he mentioned the faults and the shortcomings of his opponents, focusing on the ethical, religious, political sides with its different themes. He resorted to the diversification of his composition. He worked also on the creativity of his style that appears in many artistic, simple and fragment pictures, even though he relied on repetition in various themes, that's because of his desire to root this features in his opponents and make it an absolute truth.

This study is aimed to highlight the methods and the ways that were followed by the poets in his poetry and satirized pieces, and also aimed to identify the topics and the themes tacked through his speech about his opponents.

Keywords: Satires - the Umayyad era - EL-TEREMAH BEN HAKIM - themes - ways.

الفهـــرس

فهرس الموضوعات:

مقدّمة	**أ ــ د**
مدخل: ترجمة لحياة الشّاعر	**06 ـ 15**
1 نسبه	**06**
2 نشأته وحياته	**08**
3 مذهبه	**10**
4 وفاته	**12**
5 شعره	**12**
الفصل الأوّل: غرض الهجاء وأثر البيئة الأمويّة فيه	**17 ـ 53**
1 تعريف الهجاء	**17 ـ 20**
1.1 في المعنى اللّغوي	17
2.1 في المعنى الاصطلاحي	19
2 أنواع الهجاء	**21 ـ 30**
1.2 الهجاء الشّخصي	21
2.2 الهجاء الأخلاقي	24
3.2الهجاء الدّيني	26
4.2 الهجاء السياسي	28
3 تطوّر الهجاء في الأدب العربي القديم	**30**
4 أوضاع البيئة الأمويّة	**36 ـ 48**

1.4 الأوضاع السياسيّة	37
2.4 الأوضاع الاجتماعيّة	41
3.4 الأوضاع الفكريّة والأدبيّة	44
5 أثر الأوضاع الأمويّة في تطوّر غرض الهجاء	**49**
الفصل الثاني: موضوعات وأساليب هجاء الطّرمّاح	**54 ـ 91**
1 تعريف مصطلح الموضوع	**54**
2 موضوعات الهجاء عند الطّرمّاح	**56 ـ 73**
1.2 الهجاء الأخلاقي	57
2.2 الهجاء الخلقي	63
3.2 الهجاء السياسي	64
4.2 الهجاء بموضوع الدّين	68
5.2 هجاء النّساء	71
3 تعريف مصطلح الأسلوب	**74**
4 أساليب الهجاء عند الطّرمّاح	**76 ـ 89**
1.4 اللّغة	76
2.4 الصور البيانيّة	78
3.4 الأساليب الإنشائيّة والخبريّة	82
4.4 التكرار	87
خاتمة	**93**
قائمة المصادر والمراجع	**96**

ملخص اللغة العربيّة	104
ملخص اللغة الفرنسيّة	105
ملخص اللغة الانجليزيّة	106
الفهرس	108